كتاب الدوحة

الإصبع الصغيرة

ميشال سار

ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي



الإصبع الصغير

ميـــشـــال ســـــار
عضو في الأكاديمية الفرنسية

ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي
أستاذ في جامعة قطر



يوزع مجاناً مع العدد 80 من مجلة الدوحة يونيو 2014

الإصبع الصغيرة

ميشال سار
Michel Serres

ترجمة: د. عبدالرحمن بوعلي

أستاذ في جامعة قطر

Petite Poussette

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

الرسوم والإخراج الفني : علاء الألفي - مجلة الدوحة

الفهرس

إلى هيلين،

مكوّنة مكوّني الإصبع الصغيرة،

وخطيبة خطباء الأصابع الصغيرة.

وإلى جاك، الشاعر،

الذي جعلهم ينشدون.

1

الإصبع الصغيرة

قبل أن نعلِّم أيّ شيء لأيّ شخص، يجب- على الأقلّ- معرفته. فمن ذا الذي يتقدَّم اليوم إلى المدرسة الإعدادية، الثانوية، أو الجامعة؟

-I-
أشياء مستجدّة

هذا التلميذ الجديد، وهذه التلميذة الشابّة، لم يسبق لهما أن رأيا في حياتهما، أبداً، بقرة أو خنزيراً أو دجاجة. ففي عام 1900 كانت الغالبية العظمى من الناس، على الكوكب، تشتغل في الحرث والرعي، وفي عام 2011 لم تكن فرنسا، مثلها مثل البلدان الشبيهة بها، تتوافر إلا على 1 في المئة من القرويين. ولا شكّ أننا يجب أن نرى هنا واحداً من أضخم التمزُّقات في التاريخ، منذ العصر الحجري الحديث. فالثقافة التي كانت، في السابق، والمرتبطة بالممارسات الجيورجية «géor-giques»، تغيَّرت. غير أن ما بقي ثابتاً، هو أننا لا زلنا نأكل دائماً ما تنتجه الأرض.

إن الذي أقدِّمه لكم، أو التي أقدِّمها لكم، لم يعد يعيش، أو لم تعد تعيش، البتة، برفقة الأحياء، ولم يعد يسكن، أو لم تعد تسكن المكان نفسه، ولذلك لم يعد يقيم، أو لم تعد تقيم العلاقة نفسها مع العالم. إنه لم يعد يرى، أو إنها لم تعد ترى الطبيعة إلا في لحظات العطل والترفيه والسياحة الخيالية.

هو يعيش في المدينة، عكس أسلافه المباشرين، الذين كان أكثر من نصفهم يزرعون الحقول، ولكنه، بات أكثر إحساساً بقضايا البيئة. إنه حذر، وأصبح يلوِّث أقل مما كنا نفعل نحن البالغين، غير الواعين، والنرجسيين.

لم تعد لديه الحياة المادية نفسها، ولم يعد له العالم نفسه في أعداده، فقد قفزت الديموغرافيا فجأة، خلال مدة حياة إنسانية فقط، من مليارين إلى سبعة مليارات نسمة. إنه يسكن عالماً ممتلئاً.

هنا، متوسِّط العمر المحتمل لديه وصل إلى ثمانين عاماً. ويوم زفاف أجداده السابقين، كان يَتمّ القسم عليه بالوفاء، لعَقْد على الأقل. وهل إذا ما كان هو وهي يفكِّران في أن يعيشا معاً، سيقسمان أيضاً بالوفاء لخمس وستين سنة؟ لقد كان آباؤهم وأمهاتهم يَرِثون في الثلاثينات، أما هما فسوف ينتظران شيخوختهما للحصول على هذا الإرث. لم تعد لديهما الحياة نفسها، ولم يعودا يعيشان الأعمار نفسها، ولم يعودا يعرفان الزواج نفسه ولا طريقة انتقال الأملاك نفسها.

كان آباؤهم، وهم يذهبون إلى الحرب بورود على أسلحتهم، يهدون إلى الوطن متوسِّط حياة قصيرة، وكانوا يجرون- أيضاً- أمامهم الوعد بستة عقود.

ومنذ ستين عاماً، وهي مدّة الفجوة الوحيدة في تاريخنا، لم يعرف هو، ولم تعرف هي، الحرب، ولم يعرفها حكّامهم أو معلِّموهم.

وهما يستفيدان من الطبّ الذي أصبح أخيراً فعّالاً، ومن الصيدلة، ومن المسكِّنات، ومن أدوية التخدير، أصبحا يعانيان أقلّ، إحصائياً، من الذين سبقوهما. هل كانا جائعين؟ ومع ذلك، فإن كل الأخلاق، دينية كانت أم

علمانية، تتلخَّص في تمارين مصمَّمة لتحمل الألم اليومي الذي لا مفرّ منه: كالأمراض، والمجاعة، وقسوة العالم.

لم يعد لديهما الجسم نفسه أو السلوك نفسه، ولا أحد من الكبار عرف، أو أمكن له أن يلهمهما الخلق المناسب.

وفي الوقت الذي كان فيه آباؤهما مأخوذين بالعماء، كانت ولادتهما مبرمجة. وبالنسبة للطفل الأول، فقد ارتفع متوسِّط عمر الأم من عشرة أعوام إلى خمسة عشر عاماً، وآباء التلاميذ غيروا جيلهم. نصف هؤلاء الآباء طلَّقوا. فهل تركوا أطفالاً؟

هو وهي ليس لهما التربية نفسها.

وإذا كان أسلافهما يجتمعون في فصول دراسية، أو في قاعات، أو في مدرَّجات متجانسة ثقافياً، فإنهما يدرسان في مجموعة، حيث تتجاور فيها، جنباً إلى جنب، العديد من الديانات، واللغات، والأصول، والأعراف. وبالنسبة لهما ولمعلِّميهما، فإن التعدُّدية الثقافية «le mul-ticulturalisme» أصبحت قاعدة منذ بضعة عقود. فكم من الوقت يكفي كي يتمكّنا، في فرنسا، من إنشاد أغنية «الدم الملوث» الكريهة للأجنبي؟

لم يعد لديهما العالم العالمي نفسه، ولم يعد لديهما العالم الإنساني نفسه. فحولهما بنات وأبناء المهاجرين القادمين من بلدان أقلّ غنى، وهم قد عاشوا تجارب حيوية معاكسة.

والحصيلة المؤقَّتة، أننا نطرح السؤال: ما الأدب، وما التاريخ اللذان يفهمان؟ سعيدان، دون أن يكونا قد عاشا الحياة الشاقة، الجراءة «la rusticité»، ومع الحيوانات الأليفة، وموسم الحصاد في الصيف،

والصراعات العشر، والجرحى، والقتلى، والجوعى، والمقابر، والوطن، والعَلَم المدمّى، ونصب الموتى التذكارية، دون أن يكونا قد خَبِرا، في الألم، الحاجة المُلحّة والحيوية للأخلاق؟

-II -

هذا للجسم.. وذاك للمعرفة.

كان أسلافهما يبنون ثقافتهم بأفق زمني من بضعة آلاف من السنين، مزيَّنة بالعصرين الإغريقي واللاتيني القديمين، وبالكتاب المقدس اليهودي، وببعض الأقراص المسمارية، أي بما قبل تاريخ قصير. أما في عصرهما الذي أصبح يتكون من مليارات السنين، فأفقهما الزمني يرجع إلى ما قبل حاجز البلانك، ويمرّ عبر تراكم الكوكب، وتطوُّر الأنواع، إنه نوع من الباليو- أنتروبولوجياpaleoanthropology المليونية.

وهما لم يعودا يسكنان الزمن نفسه، بل أصبحا يعيشان قصة أخرى جديدة.

لقد تَمَّ تشكيلهما من قِبَل وسائل الاتصال التي تنشر من قبل البالغين الذين دمَّروا، بدقة، قوة الاهتمام لديهم، بتقصير مدة عرض الصور إلى سبع ثوان، ومدة الإجابات عن الأسئلة إلى خمس عشرة ثانية، وهي الأرقام الرسمية، حيث الكلمة الأكثر تكراراً هي كلمة «الموت»، والصورة الممثّلة أكثر هي صورة الجثث. ومنذ سنّ الثانية عشرة، يقوم هؤلاء الكبار بإجبارهم على رؤية أكثر من عشرين ألف جريمة.

لقد تَمَّ تشكيلهما بالإشهار، فكيف يمكننا أن نعلِّمهما أن كلمة re-lais (كلمة تعني التتابع) تُكتَب في الفرنسية بهذه الحروف -ais، بينما تعرض في جميع محطّات القطار بهذه الحروف -ay؟ وكيف يمكن أن نعلِّمهما النظام المتري، عندما تعلِّمهما شركة القطارات، SNCF، بأكثر ما في العالم من غباوة، نظام المايل؟

إننا، نحن البالغين، قمنا بتحويل مجتمعنا من مجتمع مشهدي إلى مجتمع تعليمي، حيث تقوم المنافسة الساحقة، التافهة بكبرياء، بتهميش المدرسة والجامعة. وبالرجوع إلى زمن الاستماع والمشاهدة، الإغراء والأهمية، فإن وسائل الإعلام سيطرت منذ فترة طويلة على وظيفة التدريس.

إن معلِّمينا المنتقدين، والمحتقَرين، والملعونين، لأنهم فقراء وسرِّيّون، رغم أنهم حطّموا الرقم القياسي في نيل جوائز نوبل الحديثة، وميداليات فيلد، بالمقارنة مع عدد السكان، قد أصبحوا الأقل استماعاً إليهم، من جميع هؤلاء المعلِّمين المسيطرين، الأغنياء والأكثر ضجيجاً.

إن هؤلاء الأطفال يعيشون- إذاً- في العالم الافتراضي. فالعلوم المعرفية بيَّنت أن استخدام الإنترنت، وقراءة الرسائل أو كتابتها بالإصبع، واستخدام الويكيبيديا، أو الفيسبوك، لا تثير الخلايا العصبية نفسها، ولا المناطق القشرية، مثل استخدام الكتاب، أو اللوح، أو الدفتر. هما، يمكنهما التعامل مع معلومات متعدِّدة في الوقت نفسه. ولا يعرفان، ولا يدمجان أو يجمعان كما كان يفعل أسلافهم.

إنهما لا يملكان الرأس نفسه.

فبواسطة الهاتف الخلوي، أصبحت لديهما إمكانية الوصول إلى جميع الأشخاص، وعن طريق الـ «GPS»، يمكنهما الوصول إلى كل الأمكنة، وعن طريق الشاشة يمكنهما الوصول إلى كل المعرفة، إنهما يطاردان فضاءً طوبوغرافياً تجاورياً، في حين كنا نعيش في فضاء متري، محيل على مسافات.

إنهما لا يعيشان في المساحة نفسها.

ومن دون أن نلاحظ نحن أي شيء، فقد وُلِد الإنسان الجديد، الإنسان

الذي يفصلنا عن سنوات السبعينات.

هو أو هي، لم يعد لديهما الجسم نفسه، والعمر المتوقَّع نفسه، ولم يعودا يعيشان في المكان نفسه، ولا يتواصلان بالطريقة نفسها، ولا يريان العالم نفسه، ولا يعيشان في الطبيعة نفسها، ولا يسكنان الفضاء نفسه.

ولأنهما وُلِدا فوق الحافة، وكانت ولادتهما مبرمجة، لم يعودا- وهما تحت الرعاية الملطّفة- يخشيان الموت نفسه.

ولأنهما ليس لهما الرأس نفسه التي كانت لوالديهما، أصبحا، هو أو هي، يعرفان بطريقة مختلفة.

هو أو هي، يكتبان بطريقة مختلفة. ولكي نلاحظ ذلك بإعجاب، ينبغي أن نرسل، بسرعة، لا يمكنني البتة أن أقوم بها بأصابعي الغليظة، قلت أن نرسل رسائل قصيرة بواسطة الإصبعين، لقد سمَّيتهما، بكل اللطف الذي يمكن أن يعبِّر عنه أيّ جدّ، الإبهام الصغيرة والإبهام الصغير. هذا هو اسمهما، أجمل من الكلمة القديمة شبه العالمة، كلمة طابعة «dac-tylo».

إنهما لا يتكلّمان اللغة نفسها. فمنذ ريشيليو Richelieu، تنشر الأكاديمية الفرنسية على رأس كل ما يقرب من أربع سنوات، وكمثال عن ذلك، قاموسنا. وفي القرون السابقة، كان الفرق بين النشرتين يصل إلى حوالي أربعة أو خمسة آلاف كلمة، وهي أرقام ثابتة بالتقريب، في حين وصل الفرق بين النشرة السابقة والنشرة التي تليها، إلى حوالي ثلاثين ألفاً.

بهذا الإيقاع اللغوي، يمكننا أن نخمِّن أنه، خلال بضعة أجيال، يمكن للأجيال التي ستخلفنا أن تجد نفسها أيضاً مفصولة عنا أكثر مما نحن مفصولون عن اللغة الفرنسية القديمة، لغة كريتيان دي ترويس Chrétien

de Troyes أو لغة جوانفيل Joinville. إن هذا التدرُّج يعطي مؤشراً شبه تصويري عن التغيّرات الكبرى التي أصف.

ويرجع هذا الفرق الكبير الذي يمسّ جميع اللغات، في جزء منه، إلى القطيعة بين مهن سنوات الخمسينات ومهن اليوم. وسوف لن تسعى الإصبع الصغيرة وشقيقتها أكثر إلى امتهان الأعمال نفسها.
لقد تغيَّرت اللغة، وقد تحوَّل العمل.

- III -

الفرد

أكثر من ذلك، ها هما، هو وهي، قد أصبحا فردين. الفرد الذي اخترعه القديس بولس saint Paul، في بداية عصرنا، عرف ولادته فقط في هذه الأيام. فنحن أصبحنا ندرك كيف نعيش العضوية، من قديم الزمان إلى الأبد! فنحن- الفرنسيين: كاثوليكيين أو يهوداً، مواطني الكاسكون Gascons أو البيكاردي Picards، أغنياء أو فقراء، إناثا أو ذكوراً- ننتمي إلى مناطق وأديان وثقافات، وجماعات ريفية أو قروية، ومجموعات، وبلديات محلّيّة، أو ننتمي إلى جنس، أو بلد. وبواسطة الأسفار، والصور، والشاشة، والحروب البغيضة، انفجرت بالتقريب جميع هذه التجمُّعات.

والتجمُّعات التي بقيت، سرعان ما ستنفجر.

لم يعد الفرد يعرف العيش في حالة زوجية، فهو يطلِّق، ولم يعد يعرف الاستقرار في الصف، فهو كثير الحركة والثرثرة، ولا يتعبَّد في الكنيسة، وفي الصيف الماضي، لم يستطع لاعبونا إنشاء فريق، فهل سياسيونا ما يزالون يعرفون بناء حزب؟ لقد أصبح يقال في كل مكان، بموت الأيديولوجيات، إنها الانتماءات التي يتمّ توظيفها، هي التي تتلاشى.

هذا الفرد المولود حديثاً يعلن مع ذلك خبراً جيداً. وهو استبعاد سلبيات الأنانية وجرائم الحرب التي ارتُكِبت بواسطة، ومن أجل ليبيدو الانتماء. (ضحيتها مئات ملايين الأموات) وأنا أحبّ هؤلاء الناس الشباب.

هذا يعني، أنه ينبغي ابتكار روابط جديدة. يَتَّضح من مثال تجنيد الفيسبوك شبه متساوي الفاعلية لسكان العالم.

وكمثل ذَرّة دون تكافؤ، تكون الإصبع الصغيرة عارية. ونحن- البالغين- لم نخترع أية صلة اجتماعية جديدة. وتعميم الشك، والنقد، يساهم في تقويضها.

وهذه التغيُّرات النادرة في التاريخ والتي أسمّيها التغيُّرات الكبيرة «hominescentes»، تخلق، في زمننا ووسط مجموعاتنا، فجوة عريضة جداً، حيث قليلة هي العيون التي تقدر على قياس حجم صدعها الحقيقي.

إنني أقارنها، وأكرِّر، بتلك الفجوات التي وقعت في العصر الحجري، في فجر نشوء العلم اليوناني، في بداية العصر المسيحي، وفي أواخر العصر الوسيط وعصر النهضة.

وعلى الشفة المصبّ من هذه الفجوة، وجد أناس شباب ادَّعينا أننا نوفِّر لهم التعليم، ضمن أطر يرجع تاريخها إلى زمن لم تعد تتعرَّف إليه: فالمباني وساحات الفسحة، والفصول الدراسية، والمقاعد، والطاولات، والمدرَّجات، والأحياء الجامعية، والمكتبات، والمختبرات، ويمكن أن أقول أيضاً حتى المعارف والأطر التي تنتمي إلى تاريخ مُعَيَّن، والتي صُمِّمت للتكيُّف مع عصر كان فيه الرجال والعالم على ما كانوا عليه، ولم يعودوا مثلما كانوا.

لنطرح ثلاثة أسئلة كمثال:

- VI -

- ما الذي يجب تعليمه؟

- لِمَن يجب تعليمه؟

- كيف يجب تعليمه؟

ما الذي يجب تعليمه؟ وأيّة معرفة!

منذ القديم، كانت المعرفة تتأسَّس على جسد العالِم ذاته، الشاعر أو السارد المغني. هي مكتبة حيّة... هكذا كان الجسد المعلِّم للمربّي.

وشيئاً فشيئاً، أصبحت المعرفة تنقل في القراطيس، أو في الرَّقّ، وفي الكتابة الدعامة، ثم، ومنذ عصر النهضة، أصبحت تنقل في كتب الورق، والوسائل المطبوعة، وأخيراً، أصبحت تنقل اليوم، عبر الشاشة، وهي ناقل الرسائل والمعلومات.

إن التطوُّر التاريخي للزوج «ناقل - رسالة» شكَّل متغيّراً جيداً لوظيفة التعليم. فقد تغيَّرت طرق التدريس ثلاث مرات: مع الكتابة، اخترع الإغريق طريقة البايديا la paideia، وبعد الطباعة، تدفَّقت الكتابات التربوية. واليوم؟

أكرِّر. ما الذي يجب تعليمه؟ هل هي المعرفة؟ فها هي ذي على شبكة الإنترنت مُتاحة، ومجسَّدة. هل يجب تعليمها للجميع؟ مع الأسف، كل المعرفة هي في متناول الجميع. لكن، كيف ينبغي تعليمها؟ هكذا، يحصل.

مع تواصل الناس عن طريق الهاتف الخلوي، ومع إمكانية الوصول إلى جميع الأماكن، مع نظام تحديد المواقع، أصبح الوصول إلى المعرفة مفتوحاً الآن. وبطريقة من الطرق؛ فالمعرفة، دائماً، وفي كل مكان، يتمّ تعليمها مسبقاً.

إنها مجسَّدة بالتأكيد، ولكن موزَّعة أكثر فأكثر. وغير ممركزة. فنحن نعيش في فضاء متري، أقول هذا، محيلاً على مراكز، وتجمُّعات. مدرسة، أو فصل، أو حرم جامعي، أو مدرج محاضرات. إنها تمركزات من الناس، أو من الطلاب والأساتذة، أو من كتب في مكتبات، وكثير من الأجهزة والأدوات، كما يقال- في بعض الأحيان- في مختبرات... هذه المعرفة، وهذه المراجع، وهذه الكتب، وهذه القواميس... ها هي تُوَزَّع في كل مكان، وبصفة خاصة عندك، أو على الأفضل، في جميع الأماكن التي تقوم بالتنقُّل فيها. من هنا، يمكنك أن تلامس زملاءك، وطلابك، أينما كانوا، وسوف يجيبونك بكل سهولة.

إن الفضاء السابق للتجمُّعات – هذا التجمّع نفسه حيث أتحدَّث وأنتم تسمعون، ماذا نصنع هنا؟ – يذوب، وينتشر، ونحن نعيش، وقد قلت هذا للتوّ، في فضاء من تجاورات مباشرة، ولكن، بالإضافة إلى ذلك، موزَّعة. أستطيع أن أحدِّثكم من بيتي، أو من أيِّ مكان آخر، وبإمكانكم سماعي من أيِّ مكان آخر أو من منزلكم.

لا تقولوا- بالأخصّ- إن الطالب يفتقر إلى الوظائف المعرفية التي تمكِّنه من استيعاب المعرفة الموزَّعة بهذه الطريقة؛ ذلك لأن هذه الوظائف تتحوَّل- في الحقيقة- بحسب الناقل. فمع الكتابة والطباعة، تحوَّلت الذاكرة، على سبيل المثال، إلى الدرجة التي أراد فيها مونتاني Mon-taigne رأساً جيدة الصنع بدل أن تكون رأساً مملوءة. لقد تحوَّلت هذه

الرأس.

إذاً، بالطريقة نفسها التي اخترعت بها تربية «البايديا la paideia» من قِبَل اليونانيين، في وقت اختراع وانتشار الكتابة، تحوَّلت عندما ظهرت الطباعة، في عصر النهضة، كما تغيَّرت التربية جذرياً مع التكنولوجيات الجديدة، حيث إن الجديد هذا ليس- فقط- غير متغيّر واحد من بين العشر متغيرات أو العشرين متغيّراً التي ذكرت، أو يمكنني ذكرها.

إن هذا التغيُّر الحاسم في التعليم – وهو التغيُّر الذي انعكس على الفضاء كله للمجتمع العالمي ومجموع مؤسَّساته التي عفا عليها الزمن، وهو التغيُّر الذي لا يؤثِّر فقط، حتى الآن، على التعليم، ولكن- ومن دون ريب- على العمل، والسياسة، ومجموع مؤسَّساتنا: ونحن نرى حاجتنا الملحَّة إليها، ولكننا لا نزال بعيدين.

ربّما، لأن أولئك الذين ما زالوا يعيشون زمن الانتقال بين حالات الماضي، لم يتقاعدوا بعد، وهم مع ذلك يديرون الإصلاحات، وفق نماذج اختفت منذ زمن طويل.

وأنا أعَلِّم لمدة أربعين عاماً بالتقريب، في جميع خطوط عرض العالم، حيث تُفتَح عليّ هذه الفجوة واسعاً في بلدي، لقد خضعت للإصلاحات هذه، كما عانيت منها، فكانت بمثابة اللصقات «emplâtres» التي توضع على الأرجل الخشبية، أو بمثابة الخياطة «rapetassages»، والحالة أن هذه اللصقات تتلف الرِّجْل، كما أن هذه الخياطة تمزِّق أكثر الأنسجة التي تسعى إلى تقويتها.

نعم، إنني أرى أننا نعيش مرحلة مماثلة لفجر فترة تربية «البايديا»، حين تعلَّم الإغريق الكتابة وكيفية التحليل، ونعيش مرحلة مماثلة لعصر النهضة

التي شهدت ولادة الطباعة وعهد الكتاب؛ وهي فترة لا تقارن مع ذلك، لأنه في الوقت نفسه الذي تتغيَّر فيه هذه التقنيات يتحوَّل الجسد، وتتغيَّر الولادة، ويتغيّر الموت، الألم والشفاء، المهن، الفضاء، السكن، وجود الإنسان في العالم.

- V -

الإرسال

في مواجهة هذه التحوُّلات، يجب- بدون شك- ابتكار مخترعات غير متصوّرة، خارج الأطر التي عفا عليها الزمن، والتي توجِّه سلوكنا ومشاريعنا. إن مؤسَّساتنا تتوهَّج ببريق يشبه، اليوم، ذلك البريق الذي تبعث به النجوم التي عَلَّمَتْنا- قديماً- الفيزياء الفلكية أنها كانت ميتة بالفعل منذ مدّة.

لماذا لم تتحقَّق هذه الابتكارات الجديدة؟ إنني أتَّهم الفلاسفة، ولا أستثني نفسي، أولئك الناس الذين يتلخَّص عملهم في توقُّع المعرفة والممارسات القادمة، والذين هم من أمثالي، وأعتقد، أنهم فشلوا في مهمَّتهم. إنهم- وهم يشاركون في العملية السياسية اليومية، لم يستطيعوا رؤية اللحظة المعاصرة وهي تأتي.

وإذا كان لي، بالفعل، أن أمضغ صورة البالغين مثلي، فقد كان ذلك أقلّ إغراء.

وأودّ أن أكون في الثامنة عشرة من العمر، عمر الإصبع الصغيرة، لأن كل شيء لا بدّ من إعادة بنائه، وليس لأن كل شيء لا بدّ أن يُختَرَع.

آمل أن تمنحني الحياة ما يكفي من الوقت للعمل مرة أخرى، جنباً إلى جنب مع هؤلاء الصغار، الذين كرَّست لهم حياتي، لأنني أحببتهم دائماً باحترام.

2

المدرسة

رأس الإصبع الصغيرة

في أسطورته الذهبية، يحكي «جاك دي فوراجين Jacques de Voragine» أنه في القرن الذي شهد الاضطهاد الذي أملاه الإمبراطور دوميتيان، حدثت لـ«الوتيس، Lutece» معجزة. فالجيش الروماني أوقف «دينيس، Denis» الذي تَمّ انتخابه أسقفاً من قِبَل مسيحيّي باريس. وبعد سجنه وتعرُّضه للتعذيب في جزيرة المدينة «إيل دو لا سيتي، l'île de la Cité»، حُكِم عليه بقطع رأسه في أعلى تلة، سيطلق عليها فيما بعد اسم «مونتمارتر، Montmartre».

ولكسل الجنود، فقد فضّلوا عدم الوصول إلى الأعلى، وقاموا بتنفيذ الحكم بضحيَّتهم في منتصف الطريق. تدحرجت رأس الأسقف على الأرض. ويا للرعب! ثم وقف دينيس وهو برأسه المقطوعة، وحمل رأسه، وهو يمسك بها بين يديه، استمرّ في صعود التلة. ثم يا للمعجزة! فَرَّ فيلق الجنود من الرعب. ويضيف المؤلّف أن دينيس وقف يمسح الرأس في عين جارية، ثم استمرّ يمشي في طريقه حتى وصل منطقة سان دينيس الحالية. وها هي القصة قد أصبحت مُقَنَّنة.

تفتح الإصبع الصغيرة حاسوبها. وإذا لم تكن الإصبع الصغيرة تتذكَّر هذه الأسطورة، فإنها ترى، مع ذلك، أمامها وبين يديها، رأسها هي الأخرى بالذات، وهي المليئة جداً بالاحتياطي الكبير من المعلومات، والمصنوعة جيداً، ذلك لأن محرِّكات البحث توجد، تحت الرغبة، النصوص، والصور، وأكثر من ذلك، لأن عشر أنظمة logiciels يمكنها أن تحلِّل عدداً لا يحصى من المعطيات، أسرع مما يمكن لها هي أن تفعل. إنها تمسك هنا، خارج ذاتها، إدراكها الذي كان قديماً داخلياً، مثلما كانت سان دينيس تمسك أو تحمل- فوقها- الرأس مفصولة عن الرقبة. فهل

يمكن أن نتخيل الإصبع الصغيرة وهي مقطوعة الرأس؟ يا للمعجزة!.

في الآونة الأخيرة، أصبح جميعنا سان دينيس، مثلنا مثله. فقد خرجت من رأسنا العظام والأعصاب ذاتها، رؤوسنا الذكية. بين أيدينا، مربع الحاسوب الذي يُحمَل وُيَشغَّل بالفعل، ما كنا نسمّيه في السابق «الكلّيّات les facultés»: ذاكرة، أقوى ألف مرة من ذاكرتنا، وخيال مليء بملايين الأيقونات؛ سبب آخر، لأن الكثير من البرامج يمكن أن تحلّ مئة مشكل لم يكن بوسعنا حَلّه وحدنا. لقد تَمَّ طرح رؤوسنا أمامنا، في هذا الصندوق المعرفي المجسَّد.

بعد قطع الرأس، ما الشيء الذي ما زال على أكتافنا؟ إنه الحدس المبتكر والحيوي. إن التعلُّم، وهو يسقط داخل الصندوق، سيسمح لنا بفرح ابتكار وهّاج. والنار: هل نحن محكومون بأن نصبح أذكياء؟

عندما ظهرت الطباعة، فَضَّلَ مونتين- كما سبق أن قلت- رأساً جيدة الصنع على المعرفة المتراكمة. ذلك لأن هذا التراكم المجسَّد مسبقاً، يسكن الكتاب، فوق رفوف مكتبته، وقبل «غوتنبرغ Gutenberg»، كان ينبغي أن نحفظ، عن ظهر قلب، «ثيوسديد Thucydide»، و«تاسيتي، Tacite» إذا كنا نريد دراسة التاريخ، ونحفظ أرسطو والميكانيكيين اليونانيين إذا كنا نهتمّ بالفيزياء، و«ديموسثينيس، Dé-mosthènes»، و«كينتيليان، Quintilien» إذا أردنا أن نتفوّق في فن الخطابة...أي، أن تكون رؤوسنا مليئة. ومن الناحية الاقتصادية ينبغي أن نتذكّر أن حجم المجلَّد على رفّ المكتبة يكلّف أقلّ من حجم ذاكرة الاحتفاظ بمحتوياته. إنه اقتصاد جديد، اقتصاد جذري هذه المرة: فلا أحد يحتاج إلى التفكير في المكان (الذي نضع فيه الكتاب)، فمحرِّك بحث يتكفَّل بذلك.

والآن، فرأس الإصبع الصغيرة المقطوعة تختلف عن الرؤوس القديمة، المصنوعة جيداً والمملوءة جيداً. ولأنها لم يعد لها أن تشتغل بقوّة أكثر، لكي تتعلَّم المعرفة، ذلك لأن المعرفة أصبحت مطروحة أمامها، مجسَّدة، مجموعة، وجماعية، وموصولة، ومُوصِلة إلى المتعة، وقد تمَّت مراجعتها ومراقبتها عشر مرات، ويمكن لها أن تعود إلى مؤشِّر الغياب «le moi-gnon d'absence» الذي ينزرع في عنقه المقطوع. هنا يمكن أن يمرّ الهواء، والريح، والأفضل، يمرّ الضوء الذي رسمه «بونات Bon-nat»، الرسام الإطفائي، عندما رسم معجزة القديس دينيس على جدران البانثيون Panthéon في باريس. هنا تكمن العبقرية الجديدة، الذكاء المبتكر، والذاتية المعرفية الأصيلة، فأصالة الفتاة تلجأ إلى هذا الفراغ الشفاف، وهذا النسيم العليل. والمعرفة شبه المجّانية، ومع ذلك من الصعب الإمساك بها.

فهل تحتفي الإصبع الصغيرة بنهاية عصر المعرفة؟

الصعب والسهل

كيف أمكن لهذا التحوُّل الإنساني الحاسم أن يتحقَّق؟ إننا نشعر، ومن دون تردُّد، أن الثورات، التي تتحقَّق بالفعل وبالملموس، تقوم حول الأشياء الصعبة، وتمكِّننا من الأدوات والمطارق والمناجل. إننا نعطي، حتى أسماءها، لعصور التاريخ: عصر الثورة الصناعية المعاصرة، وعصور البرونز والحديد، وعصر الحجر المصقول أو المقطوع. إننا نولي- ونحن عميان وصُمّ- المكفوفين، بهذا القدر أو ذاك، اهتماماً أقلّ، للعلامات

السهلة، من الاهتمام الذي نوليه لهذه الآلات الحادّة، والصعبة والعملية.

ومع ذلك، فإن اختراع الكتابة، واختراع الطباعة في وقت لاحق، غيَّرا الثقافات والجماعات أكثر مما غيَّرا الأدوات. ويظهر أن الصعب يظهر فاعليَّته على أشياء العالم، أما السهل، فهو يظهر فاعليَّته على مؤسَّسات الرجال. إن التقنيات تقود أو تفترض العلوم الصعبة، أما التكنولوجيات فتفترض، وتقود العلوم الإنسانية، المجالس العمومية، والسياسة والمجتمع. ومن دون الكتابة، هل كان بوسعنا أن نجمتع في المدن، أو كان بوسعنا أن نوفِّر حقاً، أونؤسِّس دولة، أو نتصوَّر التوحيد والتاريخ، أو أن نخترع العلوم الحَقَّة، أو أن نؤسِّس البايديا la paideia...؟ وهل كنا سنضمن استمراريتها؟ دون الطباعة، هل كان بوسعنا- ونحن في عصر النهضة- أن نسمّي بدقّة، أو نغيِّر مجموع هذه المؤسسات وهذه المجالس العمومية؟ إن السهل ينظِّم ويوحِّد أولئك الذين يستخدمون الصعب.

ومن دون أن يعطي كل منا للآخر دائماً أكثر، نحن نعيش مجتمعين اليوم، بصفتنا أطفال الكتاب، وأحفاد الكتابة.

فضاء الصفحة

إن المكتوب، وهو يتشكَّل من خلال المطبوع، يوجد اليوم، في جميع أنحاء الفضاء، إلى درجة أصبح يغزوه، ويحجب المناظر الطبيعية فيه: الملصقات الإعلانية، واللوحات الطرقية، والأزقّة والشوارع والطرق المسهمة، والوقت في الملاعب، والترجمات في الأوبرا، وقراطيس

rouleaux الأنبياء في المجامع الإنجيلية، وفي الكنائس، والمكتبات، والحرم الجامعي، والسّبّورات السوداء داخل صفوف الدراسة، والباوربونت في مدرجات المحاضرات، والمجلات والصحف...

إن الصفحة تسيطر علينا وتقودنا. والشاشة تعيد إنتاجها.

إن السجل العقاري في المناطق الريفية، ومخططات المدن أو المخططات الحضرية، وورق المهندسين المعماريين الأزرق، ومشاريع البناء، ورسومات القاعات العمومية، والغرف الحميمية... تقلِّد، من خلال شبكاتها السهلة والمرقَّمة الصفحات، صفحات قطع أراضي أسلافنا، وهي المربعات المزروعة بالبرسيم، أو القطع الصغيرة المحروثة التي يترك فيها المزارع أثر المحراث، إن الخطّ الباقي قبلاً، يكتب سطره فوق هذا الفضاء المقطّع. هي ذي الوحدة المكانية للإدراك، والفعل والفكر، والمشروع، وهو هذا الشكل المغرق في القِدَم «multimillénaire» الذي ينطبع فينا، نحن البشر بالتقريب، وعلى الأقلّ نحن الغربيين، كما ينطبع في النحل في فرنسا.

التكنولوجيات الجديدة

إن تنسيق الصفحة هذا، أصبح يهيمن علينا أكثر، ما دامت التكنولوجيات الجديدة لم تظهر بعد حتى الآن. وإن شاشة الكمبيوتر التي تنفتح هي نفسها مثل الكتاب، تقوم بالتمثيل لذلك، والإصبع الصغيرة تكتب دوماً عليها، بأصابعها العشرة، أو على المحمول بإصبعيها الاثنتين.

وعندما يكون عملها قد أُنجِز، تتعجَّل طباعته. إن المبتكرين يبحثون

عن الكتاب الإلكتروني الجديد، في الوقت الذي لم يتحرَّر فيه المجال الإلكتروني، من الكتاب، وذلك على الرغم من أن هذا ينطوي على شيء آخر مغاير، غير الكتاب، شيء آخر غير شكل الصفحة العابرللتاريخ. هذا الشيء مازال علينا اكتشافه. والإصبع الصغيرة ستقوم بمساعدتنا على ذلك.

أتذكَّر الدهشة التي شعرت بها منذ بضع سنوات، في جامعة ستانفورد Stanford، حيث أقوم بالتدريس منذ ثلاثين عاماً، وأنا أرى كيف بدأت ترتفع، في محيط البناء الرباعي القديم الذي تَمّ تمويل بنائه من طرف مليارديرات منطقة وادي السيليكون «Silicon Valley» المجاورة، أبراج مخصَّصة للمعلومات مشابهة بالتقريب، في الحديد، والخرسانة، والزجاج، للمباني الأخرى المصنوعة من الإسمنت المسلَّح، والزجاج، حيث تعطى، فيها- منذ قرن- دروس الهندسة الميكانيكية، أو تاريخ العصور الوسطى. إنه التخطيط نفسه على الأرض، وعلى الفصول والممرّات. وكلها من وحي شكل الصفحة دائماً. يحدث هذا وكأن الثورة الأخيرة، القوية مثل ثورة الطباعة والكتابة لم تغيِّر أيّ شيء في المعرفة والتربية، ولم تُغَيَّر أيّ شيء في الفضاء الجامعي هو الآخر، الذي تَمَّ اختراعه قديماً قبل الكتاب، ومن أجله.

لا. إن التكنولوجيات الجديدة تفرض الخروج من الشكل الفضائي الذي يعكسه كل من الكتاب والصفحة. لكن، كيف؟

قصة سريعة:

إن الأدوات المعتادة، في البداية، تقوم بإخراج قواتنا الكبيرة، وبخروجها من أجسادنا، تنتقل عضلاتنا وعظامنا ومفاصلنا، نحو الآلات البسيطة،

العتلات والرافعات، التي تحاكي العملية، كما أن حرارتنا العالية التي هي مصدرالطاقة لدينا، وهي تنبثق من الجسم، تنتقل نحو الآلات العصبية. إن التكنولوجيات الجديدة تُخْرِج أخيراً الرسائل والعمليات التي تتنقل داخل النظام العصبي، المعلومات والشيفرات السهلة؛ في حين ينتقل الإدراك، جزئياً، نحو هذه الأداة الجديدة.

ما الذي يتبقّى، إذاً، فوق الأعناق المقطوعة لـ «سان دينيس» الباريسي ولأبنائه وبناته اليوم؟

الصغيرة تتأمَّل:

الكوجيتو: تختلف فكرتي عن العلم، وعن عمليات المعرفة، الذاكرة، والخيال، والاستنتاج، والدقة، والهندسة... التي تنقل من الخارج، مع نقاط الاشتباك العصبي والخلايا العصبية إلى الكمبيوتر. من الأفضل القول: إنني أفكر، وأخترع، إذا ما فصلت نفسي بهذا الشكل، عن هذه المعرفة، أي إذا ما أبعدت نفسي عنها. بهذا الشكل، أتحوَّل إلى هذا الفراغ، إلى هذا الهواء الذي لا نلمسه، إلى هذه الروح، حيث تترجم اللفظة هذه الريح. إنني أفكر حتى أكثر ليونة من هذه الليونة الموضوعية نفسها، فأنا أخترع إذا ما استطعت الوصول إلى هذا الفراغ. ولن تتعرَّفوا إليَّ من رأسي، أو من كثافة ما تحتويه، أو من المحتوى المعرفي الفريد من نوعه لها، ولكن من غيابها اللامادّي، زمن الضوء الشفاف المنبثق عن الانفصال؛ أي هذا اللاشيء.

وإذا كان «مونتاني، Montaigne» قد أوضح الطرق التي تكون للرأس حتى تكون في أحسن صورة، فقد كان عليه، انطلاقاً من هذا الأمر، أن

يرسم المربَّع ليُملَأ، وفي الحين ستعود الرأس المملوءة. إن رسم هذه الرأس الفارغة اليوم، معناه أن يتمّ إخراجها ووضعها داخل الكمبيوتر. نعم، لا ينبغي قطعها لنستبدل أخرى بها. ولا ينبغي أن نشعر بأي خوف ونحن أمام الفراغ. إذاً، فلنتشجَّع... إن المعرفة وأشكالها، والثقافة وطرقها، والتفصيل اللامحدود والتركيبات المثيرة، كل هذه الأمور التي كان أساتذتي القدامى يكوّمونها مثل الدروع، في حواشي الصفحات، وفي قوائم المراجع الضخمة من الكتب، والتي كانوا يتّهمونني بأنني نسيتها، كل هذه الأمور، وبضربة سيف جلّادي سان دينيس، تقع في الصندوق الإلكتروني. إن الأنا الغريبة، وشبه المتوحّشة، تنسحب من كل ذلك، حتى من هذه، وتحلّق في الفراغ، بصراحتها الفارغة البيضاء. إن الذكاء الابتكاري يُقاس من المسافة التي تفصله عن المعرفة.

لقد تغيَّرت الذات المفكِّرة. فالخلايا العصبية التي يتمّ تفعيلها في الضوء الأبيض للرقبة المقطوعة تختلف عن تلك الخلايا العصبية التي تستدعيها الكتابة والقراءة عند أسلافنا الذين يتهامسون مع الكمبيوتر.

ومن هنا تنشأ الاستقلالية الجديدة للتفاهمات التي تتوافق معها حركات الجسم دون توتُّر الأصوات وصخبها.

الصوت:

إلى هذا الصباح، يقوم المدرِّس في فصله الدراسي أو في مدرج محاضراته، بإلقاء معرفة يسكن، في جزء منها، في الكتب. إنه يُشَفِّهُ المكتوب: الصفحة والمصدر. وإذا ما استطاع أن يخترع شيئاً، (ولا يتحقَّق هذا إلا نادراً) فإنه يكتب في الغد صفحة أو كتاباً. ويقوم كرسيّه

بإسماعنا هذا الصوت الناطق. ومن أجل تحقيقق هذا النقل الشفوي، فإنه يطلب الصمت، لكنه لم يعد يحقِّقه.

إن ما يمكن تسميته موجة التكلُّم أو القيل والقال «le bavardage»، التي يتمّ تكوينها منذ الطفولة، في الفصول الابتدائية، والتحضيرية، هذه الموجة التي انتقلت في شكل تسونامي إلى التعليم الثانوي، قد وصلت إلى التعليم العالي، حيث تمتلئ المدرجات التي يعمّها التكلُّم، لأول مَرّة في التاريخ، أصوات تتعالى دوماً (هرج ومرج)، والتي تجعل كل استماع أمراً صعباً، أو تجعل صوت الكتاب القديم غير مسموع. إنها ظاهرة عامة بالتقريب إذا ما تمّ الانتباه إليها. إن الإصبع الصغيرة لا تقرأ، ولا ترغب في الاستماع إلى مكتوب سبق قوله. إن ما كان الإشهار القديم يرسمه في شكل كلب لم يعد يسمع صوت صاحبه la voix de son maître. إن الإصبع الصغيرة وأخواتها وإخوانها، الذين حكم عليهم بالصمت منذ آلاف السنين، بدأوا، الآن، ينتجون في جوقة، ضوضاء في الخلفية تصمّ الناطق باسم الكتابة.

لماذا تثرثر الإصبع الصغيرة بين هرج ومرج رفيقاتها ورفاقها؟ لأن هذه المعرفة المعلنة، قد علم بها الجميع في السابق. كل هذه المعرفة موجودة، متاحة، في اليد، يمكن الوصول إليها عبر الإنترنت، والويكيبيديا، وأجهزة المحمول، ومن خلال أي موقع أو بوابة. إنها موضَّحة، وموثَّقة، ومصوَّرة، وبدون أخطاء أحسن من أفضل الموسوعات. لم يعد أحد في حاجة إلى الناطق الرسمي القديم، إلا إذا ما حاول أحد ما (وهذا شيء نادر) أن يخترع.

إنها نهاية عصر المعرفة.

العرض والطلب:

إن هذه الفوضى الجديدة، البدائية مثل أي هرج ومرج «tohu-bohu» تعلن العودة، أولاً، إلى التربية، وثانياً إلى السياسة في جميع مظاهرها. في القديم ودوماً، كان فعل التدريس يعني نوعاً من العرض. ولم يكن له، بصفته حصرياً، وشبه موصل، هَمّ الاستما ع إلى آراء أو اختيارات الطلب. إنها المعرفة المُخَزَّنة في صفحات الكتب، هكذا كان يتحدَّث عنه الناطق الرسمي، ويبينه، ويقرأه، ويقوله، كان يقول: استمع، واقرأ ثانياً، إذا كنت ترغب في ذلك. وفي كل الأحوال عليك بالصمت.

إن العرض يقول مرَّتين: اسكت.

لقد انتهى. فالهرج والمرج أو (القيل والقال) بموجته، يرفض هذا العرض، لكي يعلن، ولكي يبتكر، ولكي يقدِّم طلباً جديداً، متأتّياً من دون شكّ من معرفة أخرى. إنه الانقلاب! إننا، نحن الآخرين، معلِّمين متكلِّمين (ثرثارين)، نسمع بدورنا الهمسات الغامضة والفوضوية لهذا الطلب، والثرثرة المنبثقة من المتعلِّمين الذين، قديماً، لا أحد يستشيرهم للتعلُّم منهم إذا ما قدّموا فعلاً هذا العرض.

لماذا تهتمّ الإصبع الصغيرة أقلّ بما يقوله الناطق الرسمي؟ الجواب، لأنه، بالنظر إلى ما يوجد أمامها من عرض متنام من المعرفة، فوق ورقة هائلة، وفي كل مكان، والذي يمكن الوصول إليه دائماً، يصبح العرض الوقتي والفريد هزيلاً. إن السؤال يُطرَح بحدّة عندما ينبغي التنقُّل لكي نكتشف المعرفة النادرة والسرّيّة. ولأن مثل هذه المعرفة متوافرة الآن

بشكل كبير، وقريبة، حتى من خلال أحجام صغيرة، تحملها الإصبع الصغيرة في جيبها، وتحت المنديل. إن موجة الوصول إلى المعارف ارتفعت عالية مثلها مثل الهرج والمرج.

أما العرض من دون طلب فقد مات هذا الصباح. إن العرض الهائل الذي يلي العرض من دون طلب، والذي يحلّ محلّه، أصبح يتدفَّق أمام الطلب. هذا صحيح في المدرسة، وسأقول إن هذا ما يحدث في السياسة. هل هي نهاية عصر الخبراء؟

المُتَنقِّلون الصغار:

الأذنان والأنف مغموسة في الناطق الرسمي، والكلب الجالس والمفتون بالاستماع، لا يتحرَّك. إننا، ونحن حكماء مثل الصور، نبدأ منذ العمر الطري، ونحن أطفال، حياة مهنية طويلة للجسم على السرير، بلا حراك، وفي الصمت، و في الصفوف. اسمنا القديم، هذا هو: المتنقِّلون الصغار. إننا بجيوبنا الخاوية نطيع، ليس لأننا نخضع لمعلِّمينا، ولكن، وبالخصوص، لأننا نخضع للمعرفة التي خضع لها معلِّمونا أنفسهم بكل تواضع. إننا (هم ونحن) نعتبر هذه المعرفة مسيطرة وخطابية. لا أحد كان يجرؤ على كتابة بحث عن الطاعة الطوعية للمعرفة. بعضهم كانوا يجدون أنفسهم تحت إرهاب المعرفة، وعاجزين، بسبب ذلك، عن التعلُّم. لم يكونوا أغبياء، ولكن كانوا مُرتعبين. يجب علينا أن نفهم هذه المفارقة: لكي لا نفهم المعرفة ونرفضها، لأنه من المفروض أن نتلقّاها ونفهمها، كان من الضروري أن تكون مرعبة.

إن الفلسفة، بحروفها الكبيرة، تحدَّثت، في بعض الأحيان، عن المعرفة

المطلقة. كانت تقتضي- إذاً- من الظَّهر الانحناءة الخاضعة، مثل انحناءة أسلافنا، المنكفئين أمام السلطة المطلقة لملوك الحق الإلهي. لم توجد أبداً ديموقراطية المعرفة. فقط، إن بعضاً ممن كانوا يمتلكون المعرفة، كانوا يمتلكون السلطة، ولكن المعرفة نفسها تتطلَّب الإذلال من الأجسام، بمن فيهم أولئك الذين يمتلكونها. إن الجسم الأكثر امّحاءً، وهو جسم هيئة التدريس، يعطي دروسه وهو يومئ إلى هذا الغياب المطلق، غير القابل للوصول إليه على العموم.

إن الأجسام، وهي مفتونة، لا تتحرَّك.

ولأن فضاء المدارس والإعداديات والثانويات والجامعات، المنسّق من قبل الصفحة، يعاد تنسيقه وفق هذه التراتبية المطبوعة في الهيئة الجسدية. الصمت والسجود. وتركيز الجميع في المنصّة حيث الناطق الرسمي يستعيد الصمت والجمود المعاد إنتاجهما في التربية من المحكمة إلى الحاكم، من المسرح إلى الخشبة، من القصر الملكي إلى العرش، من الكنيسة الى المذبح، من المنزل إلى السكن... من التعدُّد إلى الواحد. المقاعد تضيق، عبر الممرّات، بالنسبة للأجساد الجامدة في هذه المؤسَّسات وهذه الكهوف. هذه هي المحكمة التي ستدين سان دينيس. هل هي عصر الفاعلين؟

الإفراج عن الجسم:

الجديد. سهولة الوصول، يعطي للإصبع الصغيرة، كما يعطي للجميع، جيوباً مليئة بالمعرفة، وتحت المناديل.

إن الأجسام يمكن أن تخرج من الكهف حيث يربطها بالكراسي الانتباه والصمت وانحناء الظهور بواسطة السلاسل. ومهما فعلنا لجعلها تقف على أرجلها فإنها لا تبقى في مكانها على المقاعد. هل هو الصراخ كما يقولون؟

لا. ففضاء المدرّج كان في السابق يرسم، كحقل قوّة، مركزه الأوركسترالي الموجود على المنصّة، في النقطة البؤرية للكرسي، وحرفياً إنه البويربونت power point. هنا تقع الكثافة الثقيلة للمعرفة، وفي الهوامش لا شيء منها. إن المعرفة، وهي توزَّع الآن في كل مكان، تكاد تنتشر في مساحة متجانسة، لا مركز لها، ومتحرِّرة حركيّاً. لقد مات فصل الأمس، حتى وإن كنا لا نراه هو فقط، حتى وإن كنا لا نعرف إلا بناءه هو فقط، وحتى وإن كان مجتمع الفرجة يسعى إلى فرضه حتى الآن.

إذاً، الأجسام، تبدأ في الحركة، وفي التجوال، وفي إصدار الحركات، وهي تبدأ في النداء، وفي التخاطب، وفي التبادل الطوعي فيما بينها لما وجدته تحت المناديل. فهل يلي الصمت الثرثرة le bavardage؟ وهل يلي الجمود الفوضى le chahut؟ الجواب لا، فالأصابع الصغيرة التي كانت قديماً سجينة، بدأت تتحرّر من سلاسل الكهف التي دامت لآلاف السنين المتعدِّدة التي كانت تربطها، جامدة وصامتة، في مكانها، بأفواه مَخيطة ومؤخِّرات مُسَمَّرة فوق الكراسي.

التنقُّل: السائق والراكب:

إن مركز الفصول الدراسية أو المحاضرات ومحورها يمكن أن يرسم أيضاً كحجم ناقلة تتمثَّل في: قطار، سيارة، طائرة، حيث يجلس الركاب في

صفوف داخل المقطورة، و يتركون القيادة لقائد يقودهم نحو المعرفة.

لننظر الآن إلى جسم الراكب. إنه متراجع إلى الوراء، وبطنه منطلق في الهواء، ونظرته شاردة وسلبية. أما السائق، فهو على العكس من ذلك نَشِط ويَقِظ، محنيّ الظهر، ويمدّ ذراعيه نحو المقود.

عندما تستخدم الإصبع الصغيرة الكمبيوتر المكتبي أو المحمول، وكلاهما يتطلَّب جسم قائد في قمّة النشاط، لا جسم أحد الركاب وهو في غاية الاسترخاء السلبي: إنه طلب وليس عرضاً، فهي تحني ظهرها، ولا تضع بطنها في الأعلى. فلندفع هذه الصغيرة داخل قاعة الدرس: إنها وقد تعوَّدت القيادة، لم يعد جسمها يتحمَّل لمدّة طويلة مقعد الراكب السلبي، إنها تتحرَّك أكثر وقد حرمت من آلة القيادة. في أثناء الضجيج ضعوا بين يديها كمبيوتراً، فستجد من جديد حركيّة الجسم القائد.

لا يوجد هنا إلا القائدون (السائقون) والحركيّة. وحيث ينعدم المتفرِّجون، ويمتلئ الفضاء المسرحي بالممثِّلين، والهواتف النقالة، والكثير من القضاة في المحكمة، ليس هناك إلا الخطباء الإيجابيون (الحركيون)، فلا كهنة في مكان المعبد؛ فالمعبد قد امتلأ بالمتعبِّدين، ولا وجود للمعلِّمين في المدرجات، هناك، وحيثما ولّيْتَ وجهك ستجد الأساتذة.. ونستطيع أن نقول: لا وجود للأقوياء فوق الساحة السياسية التي أصبح يحتلّها المأمورون.

إنها نهاية عصر صانع القرار.

التعليمة الثالثة:

لقد بحثت الإصبع الصغيرة عن المعرفة في جهازها. إن هذه المعرفة ذات الوصول النادر، لا يتمّ تقديمها إلا مُجَزَّأة، وقطعة قطعة، وغير مُتَّصلة. صفحة بعد صفحة، توزّع التصنيفات العلمية على كل مادة نصيبها، قسمها، مبانيها، ومختبراتها، وقسمتها من المكتبة، اعتماداتها، والناطقين الرسميين باسمها، ومهيمنيها. وتنقسم المعرفة إلى طوائف. ومن ثَمَّ فإن الواقع يطير مُجَزَّأً.

إن النهر، مثلاً، يختفي تحت أوعية متناثرة من الجغرافيا والجيولوجيا والجيوفيزياء، الهيدروناميكا، الطمي البلورات، بيولوجيا الأسماك والثروة السمكية، والمناخ، إلى جانب علوم زراعة السهول المسقيّة، تاريخ المدن الرطبة، المنافسات بين سكان الجوار، أضف إلى ذلك الجسور passerelles، والعَبّارات barcarolles، وجسر ميرابو Mirabeau... وبخلطنا ودمجنا وجمعنا هذا الحطام، بجعلنا من هذه الأعضاء المتفرّقة الجسم الحي للاتجاه الحالي، يكون الوصول السهل إلى المعرفة الذي يمكّننا من السكن في النهر، بكل ما يعنيه ذلك من معنى.

ولكن كيف ندمج التصنيفات، ونذوّب الحدود، ونجمع الصفحات التي سبق أن قُطِّعت إلى أحجام، ونطابق بين تصاميم الجامعات، ونوحِّد مدرجاتها، ونرصّ عشرين قسماً، ونعمل لكي يتفاهم الكثير من الخبراء رفيعي المستوى، والذين يظن كل واحد منهم أنه يملك التعريف الحصري للذكاء؟ كيف نحوِّل مساحة الحرم الجامعي، الذي يحاكي فضاء مخيم الجيش الروماني، وكلاهما محاطان بطرق طبيعية وموزَّعان داخل كوهورط cohortes أو حدائق متجاورة؟

الأجوبة: يحصل ذلك ونحن نستمع إلى صوت الخلفية المنبثق عن الطلب، طلب العالم والسكان، ونحن نتتبَّع الحركات الجديدة للأجسام،

ونحن نحاول شرح المستقبل الذي سينتج عن التكنولوجيات الجديدة. لكن، كيف يتمّ ذلك من جديد؟

تباين ضدّ التصنيف:

بطريقة أخرى- ويا للمفارقة!- كيف نرسم الحركات البراونية browni-ens ؟ يمكن لنا، على الأقل، تمييزها بصدفة بوكيكو Boucicaut.

فهو كمؤسِّس للسوق منخفض السعر Bon Marché، فقد رَتَّب أولاً البضائع التي تُباع، وفقاً للرفوف والأجنحة. فكل حزمة هادئة جداً في مقعدها، تُصَنَّف، وتُنَظَّم، مثل التلاميذ في الصفوف، أو مثل الجنود الرومانيين في معسكرهم المعزول. وتعني عبارة «الفئة»، في الأصل، ذلك الجيش الذي يكون على شكل صفوف مرصوصة. هكذا، فتماماً، كما المرة الأولى، التي يكون فيها المتجر الكبير، من أجل سعادة السيدات، تقوم الجامعة، التي هي لمتعة التعلُّم، بتجميع كل ما يمكن أن يحلم به حالم un chaland: مواد غذائية، وملابس. ومستحضرات تجميل. لن ينتظر النجاح، وسيربح بوكيكو ثروة كبيرة. إن الرواية التي خصَّصها إميل زولا لهذا المخترع تروي خيبة أمله، وذلك في الأيام التي تصل فيها أرقام المبيعات حدَّها الأقصى، وتظل ثابتة.

في أحد الصباحات، وبحدس مفاجئ، قام بوكيكو بتغيير هذا الترتيب المعقول، فجعل من ممرّات متجره متاهة، ومن أروقته فوضى. وعندما جاءت المرأة وهي جدّة الإصبع الصغيرة لشراء الكراث من أجل المَرَق، وأمام هذه الصدفة المبرمجة بقوة، كان عليها أن تقطع رواق الحرير والأربطة، وفي نهاية المطاف اشترت المرأة الحلي والخضار... وحينئذ كسرت المبيعات السقف.

لذلك فالتفاوت له فضائل لا يفهمها العقل. إن النظام، وهو عملي وسريع، يمكن أن يسجن مع ذلك، فهو يشجّع على الحركة، ولكنه يجمِّدها في النهاية. إن قائمة الاختيار، الأساسية للعمل، يمكنها أن تجعل الاكتشاف عقيماً. وعكس ذلك، فالهواء يدخل في الفوضى، مثل جهاز يحتوي على اللعبة، فاللعبة تقود إلى الاختراع. فما بين الرقبة والرأس المقطوعة ظهرت اللعبة نفسها.

لنتبع الإصبع الصغيرة في ألعابها، ولنستمع إلى حدس بوكيكو الصدفي الذي أصبحت جميع المتاجر تمارسه اليوم، ولنغير تصنيفات العلوم، بحيث نضع قسم الفيزياء إلى جانب قسم الفلسفة، واللسانيات مقابل قسم الرياضيات، والكيمياء جانب علم البيئة. لنقلِّم حتى التفاصيل، ولنخلط بين محتويات القوائم، بحيث يمكن لباحث ما أن يلتقي أمام باب مكتبه، باحثاً آخراً، من سماء غريبة، ويتحدَّث لغة أخرى. إنه سيسافر بعيداً دون أن يشعر بالإحراج. محلّ الكاستروم «castrum» العقلاني للجيش الروماني، الموزّع في متوازيات، والمفصول في مساكن مربَّعة، ستحلّ فسيفساء من بيوت مختلفة، نوع من الكاليدوسكوب، فن المطعمة، صحن فاسد.

لقد كان الثالث المتعلِّم يحلم- فيما مضى- بالجامعات ذات الفضاء المختلط، العانس، المرقّش، الملوَّن، المرصَّع... الحقيقي مثل منظر طبيعي! ولأنه كان ينبغي أن نسير بعيداً لكي نذهب نحو الآخر، فإننا كنا نبقى في المنزل لا نسمعه. وها هو ذا، دون توقّف في الساقين، دون أن يكون علينا أن نتحرَّك.

إن أولئك الذين يتحدّى عملهم كل تصنيف، والذين يزرعون في جميع جهات الرياح يلقّحون اللاابتكار، في حين إن الأساليب شبه العقلانية

لم تخدم قطّ أيّ شيء. فكيف نعيد رسم الصفحة؟ إننا ونحن ننسى ترتيب الأسباب، النظام طبعاً، ولكن من دون أسباب، يجب أن نغيّر السبب. والفعل الثقافي الأصيل والوحيد هو الاختراع. ولنفضّل إذاً، متاهة الرقائق الإلكترونية. ولْيَحْيَ بوكيكو وجَدّتي! هكذا تصرخ الإصبع الصغيرة.

المفهوم المُجَرَّد:

وماذا عن المفاهيم التي كثيراً ما يصعب في بعض الأحيان تكوينها؟ قل لي ماذا عن الجمال؟ تجيب الإصبع الصغيرة: امرأة جميلة، فرس جميلة، فجر جميل... قف، ولننظر جميعاً، أنا أسألك عن مفهوم، وأنت تذكر لي ألف مثال، فلن تنتهي مع بناتك ومهورك!

عندئذ، فالفكرة المجرَّدة ترتبط بالاقتصاد الكبير للفكر: فالجمال يحمل في اليد ألف جميلة وجميلة، مثلما تحتوي دائرة مسّاح الأرض على كميات كبيرة «myriades» لانهائية. لم يكن أبداً بوسعنا أن نكتب أو أن نقرأ صفحات أو كتباً لو أننا كان ينبغي لنا أن نذكر هؤلاء الجميلات وهذه الدوائر ذات الأعداد الكبيرة، من دون مفهوم. والأفضل، أنا لا يمكن لي أن أحدِّد الصفحة دون استدعاء هذه الفكرة التي تسدّ فجوات هذا التعداد اللامنتهي. إن التجريد يضع الغطاء.

فهل ما زلنا نحتاجه؟ إن الآلات التي لدينا أصبحت تمرّ بنا بسرعة فائقة، بحيث تتمكّن من إحصاء الخاص، كما يمكن أن تتوقّف عند الأصيل. إذا كانت صورة الضوء لا تزال تخدمنا لتوضيح- كما أجرؤ على القول- المعرفة؛ فإن أسلافنا اختاروا الوضوح، في حين نختار نحن بدلاً من

ذلك السرعة. ويمكن لمحرِّك البحث في بعض الأحيان أن يحلّ مَحَلّ التجريد.

وكما رأينا أعلاه بالنسبة للذات le sujet، فقد تغيَّر موضوع المعرفة. ونحن لسنا بحاجة إلزامية إلى المفهوم. وفي بعض الأحيان ليس دائماً. ويمكننا أن نطيل الحديث طالما كان ذلك ضرورياً، ونحن أمام قصص، وأمثلة وخصوصيات، وأمام الأشياء ذاتها. فهذه المعرفة الجديدة، عملياً ونظرياً، تعيد إعطاء الكرامة إلى معارف الوصف والفردي. في الوقت نفسه، تمنح المعرفة كرامتها إلى صيغ الممكن، والاحتمال، والخصوصيات. مرة أخرى، ينهار بعض التسلسل الهرمي. فبعد أن أصبح خبيراً في حالة الفوضى، فإن عالم الرياضيات نفسه لا يمكنه أن يحتقر التجار الذين يمارسون خليطاً على طريقة بوكيكو، والذي يجب أن يعلم بطريقة مندمجة، لأنه إذا قمنا بتقطيع الواقع الحي بالطريقة التحليلية، فإن هذا الواقع سيموت. مرة أخرى، فإن ترتيب الأسباب لا يزال مفيداً، بالطبع، ولكن، انتهى زمنه، وفسح المجال لسبب جديد، مشوِّق على المستوى الملموس، ومتناهٍ بطبيعته في السرد.

3 المجتمع

لقد قلب المهندس مواقع أجزاء الحرم الجامعي.

ففضاء التنقُّل، والشفوية المنتشرة، والحركات الحرة، ونهاية الفصول المصنّفة، والتوزيعات المتباينة، ومصادفات الاختراع، وسرعة الضوء، والموضوعات الجديدة في الذوات وكذلك في الموضوعات، والبحث عن سبب آخر....: إن نشر المعرفة لم يعد ممكن التحقُّق في أي حرم جامعي في العالم، هذه المعرفة المنظّمة والمشكّلة صفحة صفحة، وفق التنسيق العقلاني القديم، الذي يقلِّد معسكرات الجيش الروماني. هو ذا الفضاء الفكري الذي عاد يسكن فيه، جسداً وروحاً، منذ صباح هذا اليوم، شباب الإصبع الصغيرة.

لقد هَدَّأ سان دينيس من روع الفيلق.

في مدح الدرجات المتبادلة:

هل ستقوم الإصبع الصغيرة بمنح الدرجات لمعلِّميها؟ لم يكن هذا الشجار الأخرق بالنقاش ذي القوة الهائجة في فرنسا. وكنت، من بعيد، أتساءل: منذ أربعين عاماً والطلاب يمنحون لي درجات في جامعات أخرى. لم أكن رديئاً على الإطلاق. لماذا؟ لأنه، حتى ومن دون قانون، فإن أولئك الذين يحضِّرون درساً يقومون دائماً بتقييم أستاذهم. كان هناك الكثير من الناس في المدرج، وهذا الصباح لم يصل عددهم إلى أكثر من ثلاثة أو أربعة طلاب: هل هي عقوبة بالعدد، أو بالانتباه: الاستماع أو الضجيج؟ وللسبب نفسه، تجد البلاغة أصولها في صمت الجمهور، الذي ينشأ هو الآخر من قوة البلاغة.

إن الجميع، دائماً، ما يتحمَّلون الملاحظة: المحبّ من محبوبته الصامتة، والمورِّد من أصوات زبنائه، ووسائل الإعلام من كمّ التقديرات، والطبيب

من خلال تدفُّق مرضاه، والمنتخَب من عقوبة الناخبين له. إن هذا يطرح فقط سؤال الحكومة.

إن حمّى التنقيط التي، تحت ضغط الأمهات الطيّبات وعلم النفس، غادرت المدرسة بسرعة، وغزت المجتمع المدني الذي أصبح ينشر تحت الرغبة قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ويوزّع جائزة نوبل، وجوائز الأوسكار، والكؤوس المصنوعة من المعادن الكاذبة، ويرتّب الجامعات، ويمنح درجات للبنوك و الشركات، بل وحتى الدول، التي كانت تمتلك في الماضي الحصانة. بقلبك هذه الصفحة، أيها القارئ، ستقوم بتقييمي في هذه اللحظة.

فهناك نوع من الشياطين ذو وجهين، يدفع بك إلى الحكم على هذا أو ذاك: إن كان جيداً أم سيئاً، بريئاً أم مضرّاً. إن الوضوح يميّز ما هو الشيء الذي يموت من العالم القديم، وما هو الشيء الذي ينبثق عن الجديد. وقد وُلِد، في هذا اليوم، انقلاب يعزّز حركة متناظرة بين المُقَيِّمين les notants والمُقَيَّمين، بين الأقوياء والذوات، أي نوع من التوازي. ويكاد الجميع يعتقد، بالفعل، أن كل شيء ينزل من فوق إلى تحت، من المنصة إلى الكراسي، من المنتخَبين إلى المنتخِبين، أي أن العرض يكون في المنبع، وأن الطلب الذي مكانه المصبّ يبتلع كل شيء. أن تكون هناك المساحات الكبيرة، والمكتبات الكبيرة، والمديرون الكبيرون، والوزراء، ورجال الدولة... الذين، على افتراض عدم كفاءتهم، تراهم ينشرون أمطار الرحمة بأحجام صغيرة. ربما تحقَّق هذا العصر؛ وهو ينتهي أمام أعيننا، في العمل، والمستشفى، والطريق، في جماعات، في الأماكن العامة، في كل مكان.

وقد تحرّر من أشباه الناقلين، وأعني تحرَّر من العلاقات غير المتكافئة،

فإن الانتقال الجديد يُسمِع النوتات الموسيقية تقريباً، من خلال أصواتها.

في مدح هـ. بوتر:

إن رجل برمنغهام الصغير، «همفري بوتر، Humphrey Potter»، عن طريق خيط لعبته، سيقوم بتوصيل ذراع الآلة ذات الصمامات التي كان من المفترض أن يشغّلها باليد، لقد اخترع، وهو يهجر عبوديّته، نوعاً من الاسترجاع. وسواء أكان ذلك صحيحاً أم كان غير صحيح controuvé، فهذه القصة تبيّن النضج المبكر للعبقرية، وفي نظري، تبين أحسن من ذلك، القدرة المتكرّرة، الدقيقة والمكيّفة للعامل، وحتى القاصر منه، في الأمكنة نفسها، حيث أصحاب القرار البعيدون، يأمرون بالعمل، دون أن يطلبوا شيئاً من الفاعلين، المفترض أنهم غير أكفاء. هـ بوتر هو واحد من أسماء حرب الإصبع الصغيرة.

إن الكلمة المستخدمة تعبِّر عن افتراض عدم الكفاءة: ويتعلَّق الأمر، في الواقع، بإخضاعه إلى المتعة من أجل استغلاله، ومثلما يتمّ اختزال المريض إلى عضو ينبغي علاجه، يُختَزَل التلميذ إلى أذن ينبغي أن تُملَأ، أو إلى فم صامتة يجب أن تُفتَح، إن العامل يتمّ اختزاله في جهاز ينبغي تدبيره، جهاز معقَّد، شيئاً ما، أكثر من ذلك الذي يعمل عليه. قديماً، في الأعلى كانت الأفواه المقطوعة، وفي الأسفل كانت الآذان الخرساء.

إنه مدح للمراقبة المتبادلة. وباستعادة وجوه كاملة على المستويين كليهما، تضع أفضل الشركات العامل في مركز القرار العملي. وبعيداً عن تنظيم اللوجستية، بالطريقة الهرمية، وفق التدفُّقle flux وضبط التعقيد، الأمر الذي يضاعف ذلك بطبقات من الضبط،، تترك الإصبع الصغيرة تراقب

في الوقت الحقيقي نشاطها الخاص- الأعطال المتعرَّف إليها أو التي يمكن إصلاحها بسهولة أكبر، والحلول التقنية الموجودة بشكل أسرع، والإنتاجية المحسَّنة، ولكن أن تفحص أيضاً مع وكلائها ses manda- taires، وهم الرؤساء هنا، ولكن فيما بعد أيضاً، الأطباء ورجال السياسة.

قبر العمل:

تبحث الإصبع الصغيرة عن عمل، وعندما تجده، تقول إنها ما زالت تبحث عنه. إنها تعرف أنها يمكن، بين عشية وضحاها، أن تفقد هذا العمل الذي عثرت عليه. بالإضافة إلى ذلك، فهي، في العمل، تجيب عن الذي يكلمِّها، ليس حسب السؤال الذي طُرِح، بل بطريقة لا تفقد عملها. مع ذلك، فهذه الكذبة تحدّ من خطى الجميع.

تشعر الإصبع الصغيرة بالملل في عملها. وجارها النجار، كان يتلقّى فيما مضى الخشب الختم من معمل النجارة الموجود في الغابة، ويستخرج من هذا الكنز، ووفق الطلبات، الكراسي، والطاولات، أو الأبواب. ثلاثون سنة فيما بعد، يحصل النجار، من معمل ما، على النوافذ المُصَنّعة سلفاً، التي يضعها في مجموعات كبيرة ذات فتحات منسَّقة. إنه يشعر بالملل. هي الأخرى تشعر بالملل. إن قيمة العمل تتمّ رسملتها في مكاتب الدراسة، هنا في الأعلى. ورأس المال لا يعني فقط مركزة المال، بل، يعني مركزة المياه، أيضاً، في السدود، ومركزة خام المعادن تحت الأرض، ومركزة الذكاء في بنك الهندسة، بعيداً عن أولئك الذين ينفِّذون. إن ملل الجميع يأتي من هذه المركزة، من هذا الالتقاط، ومن سرقة الفائدة هذه.

إن الإنتاجية، التي ما فتئت تزداد منذ عام 1970، وإن النمو السكاني

العالمي، الذي يتطوَّر عمودياً، وهو يضاف إلى الأولى، يجعلان العمل يصير شحيحاً على نحو متزايد؛ هل ستستفيد الأرستقراطية وحدها من ذلك، قريباً؟ لقد ولدت في أثناء الثورة الصناعية، ونسخت من مكتب الأديرة الرباني، هل تموت اليوم، شيئاً فشيئاً؟ لقد شهدت الإصبع الصغيرة، عدد ذوي الياقات الزرقاء وهو ينخفض، وإن التكنولوجيات الجديدة سوف تذيب عدد ذوي الياقات البيضاء. فهل سيختفي العمل هو الآخر أيضاً، وستغرق منتجاته، الأسواق، وغالباً ما تضرّ بالبيئة، الملطّخة بفعل الآلات، وتصنيع البضائع ونقلها؟ ذلك يعتمد على مصادر الطاقة التي يتلف استغلالها الاحتياطيات، ويلوِّث الأرض.

لقد باتت الإصبع الصغيرة تحلم بعمل جديد يكون الهدف من ورائه إصلاح هذه الأضرار، وأن يكون مفيداً: إنها لا تتحدَّث عن الأجور، كان عليها أن تكون مستفيدة، ولكنها تتحدَّث عن السعادة- أيضاً- لأولئك الذين يعملون. إنها تضع، باختصار، لائحة الإجراءات التي لا تنتج هذين النوعين من التلوث، سواء على الكوكب وبين البشر. وبسبب احتقارهم نظراً لكونهم كانوا حالمين، حاول الطوباويون الفرنسيون في القرن التاسع عشر، تنظيم الممارسات، تلك الاتجاهات المتعارضة مع الاتجاهات التي دفعت بهم نحو هذا المأزق المزدوج.

وكما أنه لم يعد هنالك من وجود إلا للأفراد، وأن المجتمع لم يعد يُنَظِّم إلا حول العمل، إذ إن كل شيء يدور حوله، حتى اللقاءات، وحتى المغامرات الخاصة التي ليس لها علاقة به، فالإصبع الصغيرة، كانت تأمل أن تنمو. ولكنها لم تجد من ذلك إلا القليل، فصارت تشعر بالملل. إنها تريد أن تتخيَّل أيضاً مجتمعاً ليس مبنيّاً حقيقة على هذا الملل، إذاً، هو مبنيّ على ماذا؟

وكم من المرّات طُلِب منها أن تبدي رأيها؟

في مدح المستشفى:

تتذكر أيضاً الزيارة التي قام بها أحدهم إلى المستشفى الكبير. وهو يدخل إلى غرفتها، دون أن يطرق الباب، يتبعه، مثل أي ذكر مسيطر، سرب من الإناث المطيعات. هنا الأنموذج الحيواني يطرح نفسه: يحاول الرئيس أن يشجّع قطيعه بخطاب طائر، وهو يدير ظهره للإصبع الصغيرة، وهي نائمة، وتعيش في افتراض عدم الكفاءة. ومثلما هو الحال في الكلّيّة، ومثلما هو الحال في مقرّ العمل، وحسب اللغة الشعبية، يقال لهذا: «أخذها مأخذ الخرقاء».

عرجاء، وحمقاء في اللاتينية، هي الافتقار للبقاء في شكل الوقوف للعصا، هذه العُصَيّة التي تأتي منها عُصَيّاتنا. والإصبع الصغيرة، تستطيع الوقوف، وهي تتماثل للشفاء، تعلن عن خبر بطريقة لغز أوديب: «كلما تقدَّم الزمن يصير الإنسان أقل احتياجاً لهذه العصا. إنه يقف وحده».

استمعوا. فالمستشفيات العمومية للمدن الكبرى، تتوافر على مواقف للسيارات، من أجل الكراسي أو الأسرّة المتحرِّكة: للطوارئ، قبل التصوير وبعده: بالرنين المغناطيسي أو بالماسح الضوئي، وقبل غرفة العمليات، أو للتخدير، أو بعد، من أجل الاستيقاظ... يمكن لنا أن ننتظر ذلك من الواحدة إلى العاشرة. فيا أيها العلماء، والأغنياء، أوالأقوياء في العالم، لا تتجنّبوا هذه الأماكن التي نسمع فيها المعاناة، والشفقة، والغضب، والألم، والصراخ، والدموع، والصلاة أحياناً، والسخط، والدعاء من الشخص الذي يدعو الشخص الذي لا يدعو أو لا يستجيب، صمت

متوتّر للبعض واستياء للأكثرية، اعتراف أيضاً... فالذي لم يمزج أبداً صوته بهذا الحفل المتنافر يعرف- دون شك- أنه يعاني، ولكنه سيجهل دائماً ما الذي تعنيه جملة «نحن نعاني»، إنها الثقة المشتركة المنبثقة من غرفة انتظار الموت والرعاية، ومن خلال العذاب حيث يخاف الجميع، ويأملون بقرار من القدر. وإذا كنت ستسأل نفسك هذا السؤال: ما هو الإنسان؟ ستعرف الجواب هنا، من خلال هذا الهرج والمرج. وقبل هذه الجلسة، حتى الفيلسوف يبقى فاقداً للشعور.

ها هو ذا ضجيج الخلفية، صوت الإنسان الذي تغطّيه خطاباتنا وثرثراتنا.

في مدح الأصوات البشرية:

هذه الفوضى ليست فقط في المدارس أو المستشفيات، وهي لا تنبع فقط من الأصابع الصغيرة في الفصول، أو من الدموع في الانتظار الصبور، ولكنها تملأ الآن كل الفضاء. المعلمون أنفسهم يدردشون عندما يتحدّث إليهم مدير المدرسة؛ تلاميذ النظام الداخلي في المدارس يتناقشون عندما يتكلّم الرئيس طويلاً؛ والشرطة يتحدّثون عندما يأمر الجينرال. المواطنون، وهم يجتمعون في ساحة السوق، يصرخون عندما يُسقِط رئيس البلدية، أو النائب أو الوزير- على الرؤوس- لغته الخشبية. اذكروا، تقول الإصبع الصغيرة بسخرية، لقاءً واحداً للكبار، لا ينبع منه- بشكل مُسَلّ- هرج ومرج مثل هذا.

إن وسائل الإعلام والضجيج التجاري المشبعة بالموسيقا الطنانة تصمّ الآذان، وتبعث على النوم، بفعل الضوضاء المؤلمة والمخدرات المحسوبة، إن هذه الأصوات الفعلية، إضافة إلى افتراضية المدوّنات

blogs والشبكات الاجتماعية، التي يبلغ، عددها الذي لا يحصى، أعداداً مماثلة لسكان هذا الكوكب. وللمرة الأولى في التاريخ، يمكننا سماع صوت الجميع. فقد أصبح لكلمة الإنسان ضوضاء في الفضاء وفي الزمن. وبعد هدوء قرى الصمت، حيث لا تدقّ- إلا نادراً- الصفارات والأجراس، القانون والدين، ابن وابنة الكتابة، يأتي، فجأة، اتّساع هذه الشبكات. إنها ظاهرة عامة إلى حدّ ما، إذا ما انتبهنا إليها، فهذا الضجيج الآتي من المشجّعين، والأصوات الخاصة أو العامة، المتوتّرة، الحقيقية أو الافتراضية، هذه الفوضى التي تغطي عليها أصوات المحرّكات ومستقبلو مجتمع الفرجة الذي شاخ بشكل كبير، تعيد بشكل كبير إنتاج التسونامي الصغير للأقسام والمدرّجات. لا، فهذا الأخير هو- في الحقيقة- الأنموذج المختزل للأنموذج الأول.

هل هذه الثرثرات الصغيرة، وهذا الهرج والمرج المنبثقان من العالم، يعلنان عن عهد يختلط به عصر شفوي ثانٍ وكتابات افتراضية أخرى؟ هل سيُغرق هذا الجديد بموجاته عصر الورقة التي تشكِّلنا؟ منذ مدة طويلة وأنا أسمع عن هذا العصر الشفوي الجديد المنبثق من الافتراضي.

وها هو طلب عام للكلمة مماثل للطلب الخصوصي. هو ذا طلب عام للكلمة شبيه بالطلب الخاص الذي كانت الأصابع الصغيرة تقوم بإسماعه، انطلاقاً من المدارس إلى الجامعات، في انتظار المرضى في المستشفيات أو العاملين في العمل. الجميع يريدون الحديث، والجميع يريدون التواصل فيما بينهم، عن طريق الشبكات المتعدِّدة. هذا النسيج من الأصوات يتطابق مع نسيج اللوحة، فكلاهما يتحدّثان في اللحظة ذاتها عن الديموقراطية الجديدة للمعرفة، التي حَلَّت منذ زمن في الأمكنة التي بدأت تنفد فيها البيداغوجيا القديمة، والتي بدأت فيها أيضاً البيداغوجيا الجديدة تبحث عن نفسها، بقدر من الولاء وقدر من

الصعوبات، وبدأت تتوافق معها. بالنسبة للسياسة العامة فإن ديموقراطية في طور التكوّن، ستفرض نفسها غداً. إن العرض السياسي، وهو يتركّز في وسائل الاعلام بدأ يموت؛ وعلى الرغم من أن الطلب السياسي، الضخم، لا يعرف، ولا يمكن له حتى الآن التعبير، فإنه يقف ويضغط. إن الصوت يسجِّل اختياره في ورقة مكتوبة، ضيِّقة ومقطّعة، محلّيّة وسرّيّة، ومن ساحته الصاخبة يحتلّ الصوت الآن كل مساحة الفضاء. إن الصوت ينتخب بشكل دائم.

في مدح الشبكات:

حول هذه النقطة المحدَّدة، تقول الإصبع الصغيرة لآبائها: كنتم تلومونني على أنانيتي، ولكن، من يستطيع إظهارها لي؟ وتلومونني على فرديتي، ولكن من عَلَّمَها لي؟ وأنتم، هل استطعتم أن تشكّلوا فريقاً؟ غير قادرين على العيش في زوجيّ «couple»، فتطلِّقون. هل تعرفون كيف تنشئون حزباً سياسياً وتجعلونه يستمر في الحياة؟ انظروا، في أية حالة يصيرون غير مهمّين وهم يقومون بإنشاء حكومة حيث يبقى كل طرف فيها متضامناً لفترة طويلة؟ أن نلعب لعبة جماعية، ذلك لأنه، لكي نستمتع بالمشهد، ينبغي تجنيد فاعلين من دول بعيدة لا زال فيها الناس يتصرّفون، و يعيشون في مجموعات. إن إندثار الانتماءات القديمة: الأخوة في السلاح، الرعايا، الأوطان، النقابات، الأسر في طور التكوين، تظل هي الضاغطة، والعقبات المخجلة أمام الديموقراطية.

أنتم تسخرون من شبكاتنا الاجتماعية، ومن استخدامنا الجديد لكلمة «صديق». هل سبق أن تمكّنتم من جمع مجموعات جدّ معتبرة حيث

يقترب عددها من عدد البشرية؟ هل من حذر هناك من الاقتراب من الآخرين بطريقة افتراضية من أجل -على الأقل- جرح عواطفهم أولاً؟ ربما تشكون- بلا ريب- أنه انطلاقاً من هذه المحاولات تظهر الأشكال السياسية التي تكنس الأشكال السابقة التي عفا عليها الزمن.

إنها، بالفعل، أشكال عفا عليها الزمن، وهي أيضاً أشكال افتراضية مثل التي أملك، تقول الإصبع الصغيرة، فجأة، وهي في غاية النشاط: الجيش، الأمة، الكنيسة، الشعب، الطبقة، البروليتاريا، العائلة، السوق... ها هي ذي هذه التجريدات، وهي تحلّق فوق الرؤوس كأوثان «fétiches» من ورق مقوّى. إنها مجسَّدة، بالتأكيد، يجب أن يقال ذلك، تجيب أيضاً، إلا أن هذا اللحم البشري، وهو أبعد عن العيش، يجب أن يتألّم، وأن يموت. إن الانتماءات المتعطِّشة للدماء، تستلزم من جميع الأعضاء التضحية بالنفس: شهداء يتعذَّبون، ونساء يُرجَمن، وزنادقة يُحرَقون أحياء، وساحرات مفترضات تُحرَقْن على الجمر، هذا بالنسبة للكنائس والقانون؛ واصطفاف جنود مجهولين بالآلاف في مقابر عسكرية، ينحني أحياناً عليهم، مع تأنيب للضمير، بعض الشخصيات، وقوائم طويلة من الأسماء على النصب التذكارية لأموات بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة، تقريباً كل الفلاحين.... هذا بالنسبة للوطن؛ ومعسكرات الإبادة ومعسكرات الغولاغ «goulags» أو الاعتقال، هي ذي النظرية الخرقاء لـ «الأجناس» والصراع الطبقي. وبالنسبة للأسرة، فهي موطن نصف الجرائم، فكل يوم تموت امرأة بسبب إساءة الزوج أو العشيق لها؛ وبالنسبة للسوق، هناك أكثر من ثلث الأشخاص يعانون من الجوع..... إصبع صغير واحد يموت كل دقيقة... في حين يؤسِّس الأغنياء النظام. وحتى جمهورك، فهو لا ينمو في مجتمعك، مجتمع الفرجة، إلا بعدد الجثث المعروضة، ولا تنمو قصصك إلا بالجرائم المسرودة، ذلك أن

الخبر السار، بالنسبة إليك، هو ليس خبراً. فمنذ بضع مئات من السنين، نحن نعدّ هؤلاء الأموات من جميع الأنواع بمئات الملايين.

إنني، بدل هذه الانتماءات المعلنة بافتراضات تجريدية، حيث كُتُب التاريخ تنشد الأمجاد الدموية، وبدل هذه الآلهة المزيَّفة، آكلي الضحايا الذين عددهم لا يحصى، أفضِّل افتراضنا المحايث الذي، مثله مثل أوروبا، لا يطلب الموت من أيّ أحد. إننا لا نريد من تجمعاتنا أن تتجلَّط مع الدم. والافتراضي على الأقل، يتجنَّب هذا الحسّي. أن لا نبني أية مجموعة بذبحنا لمجموعة أخرى، هو ذا مستقبلنا في الحياة أمام تاريخكم وسياسيّيكم، سياسيّي الموت.

هكذا تتكَلَّم الإصبع الصغيرة. وتعيش.

في مدح محطّات القطار والمطارات:

استمعوا أيضاً، تقول الإصبع الصغيرة، كيف أن هذه الحشود اللطيفة، وهي تمرّ، تُصدِر حفيفاً. ومن وجهة نظر الطريدة والفواكه وتقلبات المناخ، فالإنسان العاقل «Homo sapiens» لم يتوقَّف عن التنقُّل، وقد صار الإنسانَ المتنقِّلَ «Homo viator» منذ زمن طويل، وحتى الآونة الأخيرة، أي حين لم تعد المعمورة تقدِّم له المزيد من الأراضي المجهولة منذ تطوير عشرة أنواع من المحرِّكات، تضاعفت الأسفار، لدرجة أن تصوُّرنا عن السكن قد تغيَّر. فبلد مثل فرنسا سرعان ما أصبح مدينة تقطعها القطارات ذات السرعة الفائقة TGV مثل مترو أنفاق، وتقطعها الطرق السريعة مثل الأزقة. منذ عام 2006، قامت الخطوط الجوية بنقل ثلث البشرية. فَعَبْر المطارات ومحطّات القطار تمرّ مثل هذه

الجماهير حيث تشبه موتيلات عابرة.

وهي تحسب وقت هذه التنقُّلات من بيتها، هل كانت الإصبع الصغيرة تعرف في أية مدينة تعيش وتعمل، وإلى أية مجموعة تنتمي؟ إنها تعيش في إحدى ضواحي العاصمة، على مسافة من وسط المدينة والمطار، تعادل، من حيث الزمن، عشرة أسفار خارج الحدود؛ إنها تسكن- إذاً- في تجمُّع حضري يمتدّ خارج مدينتها وأمّتها. والسؤال هو: أين تعيش الإصبع الصغيرة؟ وهو يختزل ويوسّع في الوقت نفسه، يطرح عليها سؤالاً سياسياً، هل ذلك لأن كلمة سياسي تحيل على المدينة التي يمكن أن تقول إنها تنتمي لها؟ هناك انتماء متذبذب! ما هو؟ ومن أين جاء؟ وهل يمثِّلها؟ أهي التي تطرح تساؤلات حول مكان سكنها؟

أينما كانت: في المدرسة، وفي المستشفى بصحبة ناس من جميع الجهات، في مقرّ العمل، في الطريق مع أجانب؛ في اجتماع مع مترجمين، وهي تمرّ في الشارع حيث تسمع عدة لغات، تجاور، باستمرار، أنواعاً متعدِّدة من التهجين الإنساني، يعيد، بنجاح منقطع النظير، إنتاج خلائط من الثقافات والمعارف الملتقاة في أطوار تكوينها. ذلك أن الانقلابات الموصوفة، تؤثِّر في الكثافة السكانية لبلدان العالم، حيث ينكمش الغرب أمام المَدّ المتصاعد من إفريقيا وآسيا. إن الخلائط الإنسانية تسيل مثل ما تسيل الأنهار التي نعطيها أسماء أعلام، ولكن مياهها تخلط مياه العشرات من الروافد. إن الإصبع الصغيرة تسكن في نسيج مركَّب، تمهِّد فضاءها بمطعمة متباينة. إن عينها تعجب من هذا المشهد البصري «kaléido-scope»، وأذناها تدقّان بفوضى غامضة من أصوات ومعانٍ تعلن عن مزيد من الانقلابات.

قلب فرضية عدم الكفاءة:

باستخدام الافتراض القديم لعدم الكفاءة تفرض الآلات الكبيرة، العامة أو الخاصة، والبيروقراطية، ووسائل الإعلام، والإشهار، والتكنوقراطيا، والمؤسَّسات، والسياسة، والجامعات، والإدارات، وحتى العلوم في بعض الأحيان..... قوَّتها العملاقة، بتوجُّهها إلى البُلَداء المفترضين، الذين نسمِّيهم جمهوراً كبيراً، والمحتقرين من قبل قنوات الفرجة. وهم بصحبة نظرائهم الذين تُفتَرَض فيهم الكفاءة، والذين، إضافة إلى ذلك، ليسوا واثقين من أنفسهم، فإن الأصابع الصغيرة المجهولة، تعلن، بأصواتها، أن هذه الديناصورات، التي تأخذ أكثر من حجمها، والتي هي في الطريق إلى الانقراض، تجهل ظهور مهارات جديدة. هي ذي.

لو كانت الإصبع الصغيرة قد استشارت مسبقاً موقعاً جيداً على الشبكة،، وهو الاسم الرمزي للطالبة، والمريض، والعامل، والموظف، والإداري، والمسافر، والناخب، والكبير، والمراهق، والطفل، والمستهلك، وباختصار، مجهول الساحة العامة، ذلك الذي نسمّيه مواطنة أو مواطناً، فإنها يمكن أن تعرف، بهذا القدر أو أكثر، عن الموضوع المعالج، والقرار الذي ينبغي اتّخاذه، والمعلومة المعلنة، والرعاية الذاتية... هذه الأشياء التي يكون بها المعلِّم، المدير، الصحافي، المدرِّب، المنتخب، الرئيس أيضاً، مدفوعين نحو قمة الفرجة ومعنيين بالمجد. وكثيرون هم الأطباء الأنكولوجيون الذين يعترفون أنهم تعلَّموا من مدوَّنات النساء المصابات بسرطان الثدي أكثر مما تعلَّموا في سنوات الدراسة في الكلّيّة. ولم يعد يمكن للمتخصِّصين في التاريخ الطبيعي تجاهل ما يقوله، على الشبكة، المزارعون الأستراليون حول عادات العقارب، أو ما يقوله أدلّاء الحدائق البيرينية «pyrénéens» حول تنقُّلات الذئاب. إن التقسيم يوازي التعليم، والعلاج، والعمل، وإن الاستماع يصاحب الخطاب،

وعودة الآيسبيرغ (جبل الثلج) القديم يسهِّل المرور مزدوج التفاهم. إن الجماعي الذي يختفي فيه الطابع الافتراضي، الخائف والموجود تحت الموت العظيم، يترك المكان للمشبوك connectif، الافتراضي حقاً.

في نهاية الدروس، وبعد عشرين عاماً، أُصبِحُ أنا إيبستيمولوجياً، وهي كلمة جدّ كبيرة لكي أقول إنني أتعلَّم الطرق ونتائج العلم محاولاً في بعض الأحيان أن أحكم. لقد كنا قليلين، في ذلك العصر، وعبر العالم، لقد كنا نتواصل فيما بيننا. نصف قرن فيما بعد، أصبح كل إصبع صغير في الشارع يقرّر في مواضيع الأسلحة النووية، والنساء اللائي يحملن porteuses لأخريات، والمنظمات العالمية OGM، والكيمياء، وعلم البيئة. وبينما أنا لا أدّعي الانتماء إلى هذا التخصُّص، فإن العالم اليوم يصبح إيبيستيمولوجياً. هناك افتراض الكفاءة. لا تضحكوا، تقول الإصبع الصغيرة: عندما مَنَحَتْ ما يُسَمّى (الديموقراطية) الحقَّ في التصويت للجميع، كان عليها أن تفعل ذلك ضدّ أولئك الذين كانوا يصيحون بالفضيحة، وبأننا سنعطي ذلك بالطريقة نفسها للحكماء وللحمقى، للجهلة وللمتعلمين. الذرائع نفسها تعود.

إن المؤسَّسات الكبيرة التي أتيت على ذكرها الآن، والتي لا يزال حجمها يحتلّ كل الديكور، وذلك الساتر الذي ما زلنا ندعوه مجتمعنا، في أنها يتمّ اختزالها إلى مشهد يفقد كل يوم بعض الكثافة المعقولة، بسبب أننا لا نهتمّ حتى بتجديد المشهد، بسحقنا- برداءة- شعباً بسيطاً. إن هذه المؤسَّسات الكبيرة، وأحبّ أن أكرِّر هذا الكلام، تشبه النجوم التي نتلقّى منها الضوء، والتي- بحساب الفيزياء الفلكية- ماتت منذ زمن طويل. وللمرة الأولى ربما في التاريخ، استطاع الجمهور، والأفراد، والناس، والذي مَرَّ في السابق، وسُمِّيَ مبتذلاً، باختصار (الإصبع الصغيرة)، أن يمتلكوا- يمكن، على الأقل- الكثير من الحكمة والمعرفة والمعلومات،

والقدرة على القرار، مما تمتلك هذه الديناصورات التي لا نزال نقوم بخدمتها باستمرار، بوصفنا عبيداً منقادين، بكل شراهة في الطاقة، وبكل جشع في الإنتاج. وكما تتشكَّل المايونيز، تنتظم هذه الكائنات الوحدانية، ببطء، واحدة بعد الأخرى، لكي تشكِّل جسماً جديداً، دون ارتباط مع هذه المؤسَّسات الرسمية والضائعة. عندما يلتفت هذا الدستور البطيء، مثله مثل جبل الجليد، سنقول إننا لم نشهد الحدث وهو يتهيّأ.

إن مثل هذا الانقلاب يمسّ أيضاً الأجناس، ذلك أن العقود الأخيرة شهدت انتصار النساء الأكثر عملاً، والأكثر جدّيّة في المدارس، وفي المستشفيات، وفي المؤسَّسات... أكثر من الذكور المهيمنين، المتعجرفين والضعفاء. هذا هو السبب في عَنْوَنة هذا الكتاب بالإصبع الصغيرة. إنه يتعلَّق أيضاً بالثقافات، ذلك أن الشبكة تشجّع تعدُّد التعبيرات، وقريباً، الترجمة الآلية، في حين نحن نخرج للتوّ من حقبة حيث إن الهيمنة العملاقة للغة واحدة وَحَّدَت الأقوال والأفكار في الرداءة، بتعقيم الابتكار. باختصار، إنه يؤثِّر على جميع التجمُّعات، حتى التجمُّعات الإنتاجية والصناعية، حتى اللغوية، وحتى الثقافية، وذلك لكي تستفيد من التوزيعات الواسعة، المتعدِّدة والفريدة.

هي ذي الدرجة وقد تَمَّ تعميمها أخيراً، وهو ذا التصويت المعمَّم على ديموقراطية واسعة النطاق. إن جميع الشروط اجتمعت من أجل فصل ربيع غربي... فقط إن السلطات التي تعارضه لم تعد تستخدم هنا القوة، بل المخدرات. إنه المثال المأخوذ من الحياة اليومية: فالأشياء ذاتها تفقد أسماءها الشائعة لتفسح المجال لأسماء الماركات. ويجري هذا على جميع المعلومات، بما في ذلك السياسة، التي سلَّطت عليها الأضواء في حلبات مضاءة حيث تظهر وهي تقاتل الظلال بدون علاقة بالواقع. إن مجتمع الفرجة يقوم بتحويل الصراع إذاً، العنيف دائماً، بالمتاريس

والجثث، إلى نوعٍ من إزالة للسموم البطولية التي من شأنها أن تفرغنا من حبوب النوم الموزَّعة من قِبَل كل من موزِّعي الطرائف..

في مدح التسويق la marqueterie:

... من هم أولئك الذين، كما يحافظوا على الحالة القديمة للأشياء، يلجؤون إلى الحجّة المتعلّقة بالبساطة، أي إلى الكيفية التي يتمّ فيها تدبير التعقيد المعلَن عنه حيناً بالصخب والهرج والمرج، وحيناً بالتشتيت والتركيب، وحيناً ثالثاً بالفوضى؟ هكذا، فإن سمكة الدوراد «une do-rade» وهي تقع في الشبكة، تحاول أن تتحرَّر منها، إن الذباب المتحرِّك كثيراً vibrionnantes يسجن في شبكات العناكب، والقرويون هم أيضاً إذ يلتقون فيما بينهم، في السفوح، وأمام الخطر، يخلطون حبالهم وهم يسارعون إلى النجاة منها. إن الإداريين، في بعض الأحيان، يحرِّرون المبادئ التوجيهية للحَدّ من التعقيد الإداري، وهم يتشبَّهون بمتسلِّقي الجبال، يضاعفونها. فهل يمكن أن تختصر إلى حالتها الأولى، أو أنها مع كل محاولة لتبسيطها تتعقَّد أكثر؟

كيف يمكن تحليلها؟ هل بتعاظم عدد العناصر، وتمايزاتها الفردية، وتعدّد العلاقات بينها والتقاطعات بين هذه الطرق؟ إن نظرية المخطّطات والمعلومات تحلِّل هذه الصور في شبكة متداخلة «réseau croisé»، وتسمّيها الطوبولوجيا البسيط «semplexe». في تاريخ العلوم، يبدو هذا التعقيد بوصفه علامة لا تستخدم الأسلوب الصحيح والتي ينبغي أن نغيِّر أبدالها.

وهناك عدد كبير من الترابطات «connexes» من هذا النوع تميِّز

مجتمعاتنا، حيث النزعة الفردية، ومتطلَّبات الأفراد أو الجماعات، وانتقال المتنامي إلى المواقع. إن كل المجتمع، الآن، ينسج بُسطه الخاصة، ويتحرَّك على أخرى. في وقت سابق، كانت الإصبع الصغيرة تتنقل في فضاء مختلط، ومخطّط... في متاهة، وأمام فسيفساء من ألوان المشكال kaléidoscope. ومثلما تحيل الحرية على الجميع، وتتطلَّب منه أن يستمتع بيدين حرّتين ومرافق بدون خلفية coudées franch-es، فلا أحد يرى لماذا يتمّ تبسيط هذا الشرط لتتحقّق الديموقراطية. إن المجتمعات البسيطة تعود بنا، بالفعل، إلى التراتبية الحيوانية، وذلك تحت القانون الأكثر قوة: المسلك الهرمي وحيد القمة واسع القاعدة.

فلينتشر التعقيد، في الوقت المناسب له ! لكن، إن له تكلفة: تضاعف طوابير الانتظار وطولها، البيروقراطية، الازدحام في الشوارع، صعوبة في تفسير القوانين المتطورة، حيث إن كثرتها تخفِّض بالفعل من الحرية. إننا ندفع دائماً بالعملة التي نكسب.

تمرّ هذه الكلفة من جهة أخرى، وبالنسبة إلى واحدة من مصادر السلطة. من هنا يأتي أمر شكوك المواطنين في ممثِّليهم، لكونهم لا يرغبون في اختزال ما يسمّى (المضاعفة) بمراكمة التوجيهات للظهور بمظهر من يريد اختزالها، ولكن بمضاعفتها مثلما نضاعف أسماك «الدوراد» في الشبكة.

في مدح الدعامة الثالثة:

إن تاريخ العلوم، وأنا أكرِّر هذا، يعرف الخطوة التي تلي هذا النوع من النمو. فعندما كان أنموذج بطوليمي «Ptolémée» القديم قد راكم

العشرات من الدورات الأفلاكية التي صيرت حركة النجوم غير قابلة للقراءة ومعقَّدة. كان عليه أن يغيِّر الصورة: ينبغي أن ننقل مركز النظام نحو الشمس، وكل شيء سيصبح سهلاً. وبلا ريب، فإن قانون حمورابي المكتوب كان قد وضع نقطة النهاية إلى الصعوبات السوسيوقانونية المتعلِّقة بالقانون الشفوي. فتعقيداتنا تأتي من أزمة المكتوب. قوانين تتضاعف، وتزيد الجريدة الرسمية تضخُّماً. والصفحة تقع في نهاية السباق. ويجب علينا أن نتغيَّر. والمعلومات تمكِّننا من الانتقال إلى شيء آخر. الجميع ينتظرون هذا ويتزاحمون في صفوف الانتظار، أمام صناديق الأداء، وفي الازدحامات الطويلة، يمكن قتل الأب في الدوار، دون أن نعرف، فقط بسبب مشاجرة حول أسبقية المرور. والحالة أن هذه السرعة الإلكترونية تجنِّبنا البطء في التنقُّل الفعلي، وأن شفافية الافتراضي تمنع الاصطدامات في التقاطعات، أي تمنع العنف الذي تتسبَّب فيه.

إذاً، فليبقَ التعقيد! إنه يتكاثر، وسيتكاثر، لأن كل واحد يستفيد من الراحة والحرية التي يوفِّرها؛ إنه يميِّز الديموقراطية. وللحَدّ من التكلفة ينبغي أن نريده. بعض المهندسين يمكنهم حلّ هذه المشكلة بالانتقال إلى البارادايغم المعلوماتي، الذي تحتفظ بقدرته على النمو، وحتى تسمح بمضاعفة البسيط، ولكنها تقطعه بسرعة، تحذف، إذاً، وأكرِّر، الصفوف والازدحامات وممحاة الاصطدامات. إن وضع برنامج معلوماتي مناسب للجواز الافتراضي والقابل لكل البيانات الشخصية والقابلة للنشر، قد يستغرق بضعة أشهر لا أكثر. وسينبغي، في يوم من الأيام، وضع مجموع هذه البيانات على دعامة جديدة ووحيدة. وفي الوقت الراهن، هي موزعة على عدة بطاقات يشترك فيها الفرد مع عدة مؤسسات: خاصة أو عامة. فهل ستترك الإصبع الصغيرة - الفرد، والزبونة، والمواطنة... وإلى أجل غير مُسَمّى، الدولة، والبنوك، والمحلّات الكبرى، تستولي على بياناتها

الخاصة، وبالأخصّ وقد أصبحت هذه البيانات الآن مصدراً للثروة؟ إنها مشكلة سياسية وأخلاقية وقانونية، حلولها تحوِّل آفاقنا التاريخية والثقافية. ويمكن أن يؤدّي هذا إلى مجموعة من الانقسامات السوسيوسياسية من خلال ظهور سلطة خامسة، سلطة البيانات، المستقلة عن السلطات الأربع الأخرى: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، والإعلامية.

ما الاسم الذي ستقوم الإصبع الصغيرة بوضعه على جواز سفرها؟

في مدح الاسم الحربي:

اسم بطلتي لا يشير إلى «أحد من أبناء جيلها»، «أحد مراهقي اليوم»، وهي عبارات ازدراء. لا. فالأمر لا يعني هنا إخراج عنصر (س) من مجموعة (أ)، كما يُقال نظرياً. فالإصبع الصغيرة، الوحيدة، توجد بوصفها فرداً، لا بوصفها تجريداً. وهذا الأمر يتطلَّب تفسيراً.

فمن ذا الذي يتذكَّر التقسيم القديم، في فرنسا وغيرها من الأماكن الأخرى، بين أربع كلّيّات: الآداب، والعلوم، والقانون، والطب والصيدلة؟ إن الكلّيّات الأولى (الآداب) تنشد «الأنا» l'ego، «الأنا» الشخصي، الإنساني عند مونتاني، و«نحن» عند المؤرِّخين واللغويين وعلماء الاجتماع. أما كلّيّات العلوم، فهي، وهي تصف، وتشرح، وتحسب، تعلن عن القوانين العامة أو القوانين العالمية: نيوتن بالنسبة لمعادلة النجوم، ولافوازييه لمعمودية الجسد. ولأنهما وُضِعا معاً في المركز الثالث فإن الطب والقانون يحاولان الوصول معاً، ربما دون أن يفهما ذلك، إلى طريقة للمعرفة، مجهولة من الآداب والعلوم. وهي توحِّد بين العام والخاص، فقد وُلِد في الكلّيّات القانونية والطبية هذه، فاعل ثالث... هو

واحد من أسلاف الإصبع الصغيرة.

إن جسده أولاً، وحتى وقت قريب، يُجَسّد بصفته خشبة تشريحية تظهر خطاطة: الورك، والشريان الأورطي، ومجرى البول...، رسم تجريدي، شبه-هندسي. إنها تستنسخ الـ IRM (تصوير بالرنين المغناطيسي) لِوِرْك رجل عجوز في الثمانين، والشريان الأورطي لهذه الفتاة ذات الستة عشر عاماً... وبالرغم من كون الصور فردية، فلها بُعْد عام ونوعي. إن فقهاء الرومان (الكاسويست) Casuists، وهم يدرسون حالة خاصة، هم أيضاً، كان من عاداتهم تعيين فاعل تَمَّ ذكره في حالة مدروسة تحت اسم غايوس «Gaius» أو غاسيوس «Cassius»: أسماء الرموز، الأسماء الحربية، أو القلمية، الأسماء المستعارة، الأسماء الفريدة، الفردية، والعامة. إن هذه الأسماء تعين، بالفعل، العام والخاص؛ مزدوجة إذا كنا نريد، إنها تصلح لهذا أو لذاك.

استمعوا من الإصبع الصغيرة إلى اسم رمز خاص بهذا الطالب، أو هذا المريض، أو هذا العامل، أو هذا الفلاح، أو هذا الناخب، أوهذا المارّ في الطريق، أو هذا المواطن... المجهول بالتأكيد، ولكن المتفرِّد. فناخب واحد أقلّ يُحسَب له حساب في استطلاعات الرأي، ومشاهد واحد أقلّ يُحسَب له حساب في نسبة المشاهدة «Audimat». فالوجود هو كمية أقلّ من كيفية. تماماً، كما أن الجندي المجهول،قديماً، الذي جسده يقع أمامنا، وتحليل حمضه النووي يفرده، فإن هذا المجهول، هو هنا، بطل عصرنا.

إن الإصبع الصغيرَة ترمز إلى هذه الهوية المجهولة «anonymat».

اللوغاريتمية والإجرائية:

شاهدوا الآن الإصبع الصغيرة، وهي تشغِّل الهاتف الخلوي، وهي تتعامل بحنكة مع الأصابع-الأزرار، الألعاب أو محركات البحث: إنها تنشر دون تردُّد حقلاً معرفياً، تركته ثقافة سابقة (ونعني بها ثقافة العلوم والآداب)- لمدّة طويلة- أرضاً بوراً، والتي يمكن أن نسمّيها «إجرائية». هذا الاستعمال وهذه الحركية، لم تكن تساعدنا قديماً في المدرسة الابتدائية، إلاعندما نطرح- بشكل صحيح- العمليات الحسابية البسيطة، وربما، وفي بعض الأحيان أيضاً، عندما نقوم بترتيب بعض الحيل البلاغية أو النحوية. فعوضاً عن منافسة مُجَرَّد الهندسة، وأيضاً الوصف في العلوم- باستثناء الرياضيات- نرى أن هذه الوسائل أصبحت تنفذ اليوم إلى المعرفة والتقنيات. إنها تشكِّل الفكر الألغوريتمي. وهذه تبدأ بفهم نظام الأشياء ومساعدتنا في ممارساتنا. لقد كانت قديماً، تشكِّل، وبطريقة غامضة، جزءاً من التمارين القانونية والفن الطبي. وكلا المجالين كان يتمّ تدريسهما في كلّيّات متفرّقة للعلوم والآداب، ذلك لأنهما، بالفعل، كانا يستعملان مواد، وترتيباً للحركات، وسلسلة من الشكليات وطرقاً للعمل. نعم كانا يستعملان الوسائل.

والآن، فإن هبوط الطائرات على مدارج مستعملة؛ والعلاقات الجوية، والسككية، والطرقية، والبحرية، في قارة معينة، أو عملية جراحية طويلة للكلى أو للقلب، أو اندماج مجتمعين صناعيين، أو حلّ مشكلة مجرَّدة من تلك المشكلات التي تتطلَّب تبياناً «démonstration» مطوّراً من خلال مئات الصفحات، أو رسم رقاقة «puce»، أو استخدام «GPS»... كلّها تتطلَّب إجراءات مختلفة عن استنباط «déduction» المهندس المسّاح، أو الاستقراء «l'induction» التجريبي. إن الهدف، والجماعي، والتكنولوجي، والتنظيمي... كلّها لم تعد اليوم تحت

رحمة هذا المعرفي الألغوريتمي أو الإجرائي إلا في حالة التجريدات التصريحية، وحيث إن الفلسفة- وهي تتغذى بالفنون والعلوم- تخصص منذ ألفي عام. إن هذه الأخيرة هي تحليلية فحسب، لا ترى اليوم هذا المعرفي ينبني، ولا تمتلك الفكر، وليس فقط وسائلها، بل موضوعاتها، بل موضوعها. إنها تفتقد عصرنا.

انبثاق:

هذا الابتكار ليس جديداً. فالتفكير اللوغاريتمي (الحسابي) الذي سبق اختراع الهندسة، في اليونان، عاد إلى الظهور في أوروبا مع باسكال وليبنتز، اللذين اخترعا جهازين للحساب، و مثلهما مثل الإصبع الصغيرة، كانا يحملان اسمين مستعارين. مَرَّت هذه الثورة الرائعة والهادئة، دون أن ينتبه إليها الفلاسفة، الذين كانوا يتغذون على العلوم والآداب. بين شكلانية الهندسة (العلوم) والواقع الشخصي (الآداب) ظهر في هذا العصر، نوع من الإدراك الجديد للناس والأشياء، كان متوقّعاً من قبل في ممارسة الطب والقانون، اللذين كانا كلاهما حريصين على الجمع بين الولاية القضائية والولاية الفقهية، والمريض والأمراض، الكوني والخاص. لقد ظهرت هنا جدّتنا.

هناك ألف نظرية فعّالة تستخدم، الآن بالفعل- الإجراءات أو اللوغاريثمات (الخوارزميات). وبوصفها الوريثة المباشرة للهلال الخصيب لما قبل اليونان، للخوارزمي Kwarismi، المفكِّر الفارسي الذي يكتب باللغة العربية، ولايبنتز، وباسكال، غزت هذه الثقافة اليوم، منطقة التجريد والملموس. وقد خسرت الآداب والعلوم معركة قديمة قلت عنها مرة إنها

بدأت من مينو، وهو حوار لأفلاطون، حيث يقوم سقراط باحتقار عبد صغير. وبعيداً عن تبيين التحليل نراه يستعمل الإجراءات. إن الخادم المجهول، وأسميه اليوم الإصبع الصغير يتفوَّق على سقراط! إنه انقلاب لأكثر من ألف سنة في افتراض الاختصاص!

إن الانتصار الجديد للإجراءات القديمة يأتي من كون الألغوريتميك والإجرائية يرتكزان على رموز... وستكون لنا عودة إلى الأسماء.

في مدح الرمز:

هو ذا بالضبط مفهوم (كوديكس) لكل الأزمنة، مشترك ما بين القانون، والفقه la jurisprudence، الطب، والصيدلة. لكن اليوم، استولت عليه الكيمياء الحيوية، ونظرية المعلومات، والتكنولوجيات الجديدة. ومن هنا قامت هذه المجالات بتعميمه للحصول على المعرفة وعلى العمل بشكل عام. في القديم لم يكن المبتذل يفهم البتة في النصوص القانونية، و لا في نصوص الأدوية، وسواء أكانت مفتوحة أم كانت مُغلقة، فكتاباتهم التي ظلت مع ذلك معروضة، لم تكن مقروءة إلا عند العلماء. إن أي رمز يشبه عملة بوجهين متعارضين: الظهر والوجه. واحد نصل إليه والآخر سرّي. إنه يمتلك وجهين، نحن نحتاج إليهما في حركة المرور الحرّ للتدفّق flux الذي قمت للتو بوصف جديده. ينبغي أن نرمز لكي نبقي على المجهولية l'anonymat، ونترك الوصول حراً.

والحالة هذه أن الرمز هو الحيّ المفرد، والرمز هو هذا الرجل. فمن أنا، أنا، المفرد، الفرد، الـ.... أيضاً؟ رقم غير معلوم، ولا يمكن أن يُعلَم، مفتوح ومغلق، اجتماعي ومحتشم pudique، ويمكن الوصول إليه،

ويستحيل الوصول إليه، عام وخاص، حميمي وسري، مجهول من الأنا في بعض الأحيان ومعروض exhibé في الوقت نفسه. أنا موجود، إذاً أنا رمز، يمكن حسابه ويستحيل حسابه، مثل إبرة الذهب، كلما كان سمك التبن أكثر حيث تخفى، فهي تخفي بريقها. الحمض النووي الخاص بي، على سبيل المثال، المفتوح والمغلق، حيث رقمه الذي بنى جسدي الحميم والعام مثل اعترافات القديس أوغسطين، كم عدد علاماته؟ ولوحة الموناليزا، كم بيكسل فيها؟ وقدّاس فوري كم بيت فيه؟

إن الطب والقانون ظلّا يغذّيان- منذ فترة طويلة- هذه الفكرة عن الرجل بصفته رمزاً. وتؤكِّد ذلك المعرفة والممارسات اليوم، حيث إن الطرق تستخدم الإجراءات واللوغاريتمات؛ وقد خلق الرمز أنا جديدة. شخصية، وحميمة، وسرّيّة؟ نعم. مختلفة Générique، عامة، وقابلة للنشر؟ نعم. والأفضل، مزدوجة، لقد سبق أن قلت ذلك عن الاسم المستعار.

في مدح جواز السفر:

مَيَّز قدماء المصريين، كما يقال، جسد الإنسان عن روحه، مثل ما نفعل نحن، لكنهم كانوا يضيفون إلى هذه الازدواجية ازدواجاً، (كا). وبالتأكيد، فنحن نعلم إعادة إنتاج الجسم، في الخارج، من خلال العلم، والشاشات والصيغ، ووصف الروح الحميمية في الاعترافات، كما فعل روسو، فكم عدد العلامات؟ ثم هل يمكنني أن أنتج ضِعفي «mon double؟» رغم أنه غير محدّد وسرّي؟ ينبغي فقط ترميزه؟ بتعميم ذلك على جميع البيانات الممكنة، الحميمية، والشخصية، والاجتماعية، فإن البطاقة الحيوية، على سبيل المثال، لنخترع ترميز (كا)، جواز سفر

عالمي مرموز: مفتوح ومغلق، مزدوج، عام وسرّي بدون وجود تناقض. غريب شيئاً ما، ومهما حاولت التفكير بنفسي، فأنا أتكلَّم اللغة المشتركة.

هذه الأنا يمكنها، بكل روح وضمير، وبلطف، أن تقوم بالاعتراف، وأن تنزلق، بصفتها بلاستيكاً صلباً، في الجيب. إنها فاعل، نعم، وموضوع، نعم، مزدوجة إذاً، مرة أخرى. إنها مزدوجة مثل المريض، مؤلمة بشكل خاص، ولكن، يمكن إهداؤها كمنظر طبيعي، إلى النظرة الطبية. إنها مزدوجة، ذات كفاءة، وغير كُفْأة... مزدوجة كمواطن، عام وخاص.

صورة مجتمع اليوم:

في أزمنة لا تنسى، أراد بعض الأبطال بناء برج عالٍ معاً. وقد قدموا من أراضٍ متباينة، يتكلّمون لغات غير قابلة للترجمة، ولم يتمكّنوا من ذلك. فلا تفاهم فيما بينهم، ولا فريق عمل ممكن، ولا مجال لعمل جماعي أو بناء. وبالكاد خرج برج بابل من الأرض. ومَرَّت الآلاف من السنوات.

وعندما تمكّن الأنبياء أو الكتبة في إسرائيل، بابل، أو الإسكندرية من الكتابة أصبح العديد من الفرق ممكن الوجود، وبدأ الهرم في الانبناء، وكذلك المعبد و الزقورة le ziggourat. وأخيراً تَمَّ الانتهاء من كل ذلك. ومرَّت الآلاف من السنوات.

وذات صباح جميل، في باريس، كان هناك جمع من الناس سُمِّي معرضاً كونياً أعطى الوجود محاولة مماثلة. وفوق صفحة رسمت رأسٌ خبيرة experte تصميماً، وبعد أن اختارت المواد، حسبت نسبة مقاومتها، ووضعت الأقواس الصلبة التي وصل علوّها إلى ثلاثمئة متر. ومنذ ذلك

الحين، وبرج إيفل يسهر على الضفة اليسرى لنهر السين.

من الأهرامات المصرية إلى برج إيفل: الأولى بنيت بالحجر، والثانية بالحديد، أما الشكل العام فهو ثابت، ثابت كحالة، وثابت كدولة. إن هاتين الكلمتين ليستا إلا كلمة واحدة. إن توازن الستاتيك ينضمّ إلى أنموذج السلطة، فهو غير متغيِّر عبر عشرة متغيّرات واضحة، ودينية، وعسكرية، واقتصادية، ومالية، وخبراتية... وهو قوة يقبض عليها دائماً مجموعة من الأفراد، في الأعلى، مترابطين بالمال، بالقوة العسكرية، أو بأجهزة أخرى خاصة بالسيطرة على قاعدة عريضة ومنخفضة. بين وحش الصخور والديناصور الحديدي، ليس هناك من تغيير كبير، الشكل نفسه يظهر أكثر تثقيباً وشفافية وأناقة باريسية، وتشابكاً، وفي جميع الأحوال رأسه إلى الأعلى، وقاعدته واسعة.

إن القرار الديموقراطي لا يغيِّر من شيء في هذه الترسيمة. لتجلسوا في دائرة، على الأرض، سوف تكونون متساوين، هكذا كان يقول الإغريق القدماء. وبوصفها ماكرة، فهذه الكذبة يبدو أنها لا ترى، سواء في الجزء السفلي من الهرم أو من البرج، مركز التجمُّع الذي يرسم على الأرض عرض قمّة الهرم، والمكان تنزل منه قمّته السامية. إنها المركزية الديموقراطية قالها الحزب الشيوعي قديماً، وهو يكرِّر هذا الوهم المشهدي القديم، في حين كان ستالين وسيديس يسهران في المركز القريب، وهما اللذان كانا يخطفان، ويعذّبان، ويقتلان. ونظراً لانعدام وجود تغيير حقيقي، فنحن أناس الأطراف، نفضّل قوة بعيدة، في أعلى المحور، على هذا الجار المخيف. إن أجدادنا الفرنسيين قاموا بالثورة ضدّ الملك، الشعبي مع ذلك، أقل مما قاموا بها لإزالة البارون الشرير.

خوفو، وإيفل، الحالة نفسها.

إن ميشال أوتيي Michel Authier، المصمِّم العجيب، وأنا- مساعده- خطّطنا لإشعال نار أو لزرع شجرة قبالة برج إيفل، على الضفة اليمنى لنهر السين. في أجهزة كمبيوتر، متناثرة هنا أو هناك، كل واحد يقوم بإدخال جواز سفره، يدخل (كا)، وهي صورة مجهولة ومتفرِّدة، هويَّته المشفَّرة، بحيث إن أشعة ليزرية متدفقة وملوَّنة، تخرج من الأرض وتعيد إنتاج كمية لا تُحصى من هذه البطاقات، وتظهر الصورة المزدهرة للمجموعة، المشكَّلة افتراضياً. من نفسه بالذات، كل واحد سيدخل في هذا الفريق الافتراضي والأصيل الذي من شأنه أن يوحِّد، في صورة واحدة ومتعدِّدة، جميع الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة متناثرة، مع صفاتهم المادية والمشفَّرة. وفي هذه الأيقونة العالية، العالية مثل البرج، تتجمَّع الخصائص المشتركة في نوع من الجذع، والنادرة في الأغصان، والنادرة والاستثنائية في أوراق الشجر أو في البراعم. ولكن بما أن هذا الأمر لا يكف عن التغيُّر، وأن الجميع مع الجميع، أو الجميع بعد الجميع، يتحوَّلون يوماً بعد يوم، وأن الشجرة وهي ترتفع هكذا، تبدأ في الاهتزاز بعنف، كما لو أنها توهَّجت باللهب الراقص.

وأمام البرج الجامد، الحديدي، والحامل بافتخار اسم المؤلِّف، والناسي آلاف الذين صنعوا هذا العمل، وبعضهم توفِّي هنا، في مواجهة البرج الذي يحمل، في الأعلى، واحداً من أجهزة إرسال صوت صاحبه.

برج -بكثير من شرر لون الضوء- يرقص جديداً، متغيراً، متحرِّكاً، متقلِّباً، مُنمَّراً، مسحَّباً، مرصَّعاً، فسيفسائياً، موسيقياً، متلوِّناً، منعطفاً، ثرثاراً، برج يمثِّل المتَّصل الجماعي الأكثر واقعية بالنسبة للبيانات الافتراضية والتشاركية لكل واحد. والمجتمع اليوم يوجِّه آلافاً من ألسنة النار على وحش الأمس القديم، الصعب، الهرمي والجامد، الميّت.

بابل، المرحلة الشفوية، لا وجود لأي برج. أهرامات في إيفل مرحلة كتابية. حالة مستقرة، شجرة في النيران، وجَدّة حَيّة.

وهي سعيدة لكنها قاسية. تقول الرأس الصغيرة: وببقائكما في باريس، أراكما قد شختما، ولذا يجب أن تشعلا هذه الشجرة الطائرة على ضفاف نهر الراين، لكي يرقص أيضاً في الصورة أصدقائي الألمان؛ وفي أعلى ممرّ أنييل Agnel، لكي أغني مع زملائي الإيطاليين؛ وعلى طول نهر الدانوب الأزرق الجميل، وعلى شواطئ بحر البلطيق...هي حقائق ما تحت البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، وجبال البرانس، وحقائق ما وراء ذلك، باتجاه الأتراك، والإيبيريين والمغاربيين، والكونغوليين، والبرازيليين...

(يناير 2012)

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أبديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر الحداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل

الإصبع الصغيرة

ميشال سار

لقد تغيّر العالم كثيراً، لدرجة أن الشباب ينبغي أن يعيد اكتشاف كل شيء.
إن المجتمعات الغربية، عاشت ثورتين: الانتقال من الشفوي إلى المكتوب، ثم من المكتوب إلى المطبوع. ومثلما كانت كل ثورة من الثورتين السابقتين، فإن الثورة الثالثة، الحاسمة، ترافقت بتبدُّلات سياسية، واجتماعية ومعرفية. إنها مراحل أزمة.
ومن تطوُّر التكنولوجيات الحديثة، نشأ «إنسان» جديد: سمّاه ميشال سار «الإصبع الصغيرة» وفيها إشارة إلى الطريقة التي بها ترسل الرسائل بواسطة الأصابع.
إن الإصبع الصغيرة ستجد نفسها أمام واجب إعادة اكتشاف طريقة الوجود والمعرفة... وتبدأ عهداً جديداً سيشهد انتصار التعدُّد، المجهول، عند النخبة المسيّرة، المحدَّدة سلفاً، وتشهد المعرفة المتسائلة حول النظريات المدرّسة، والمجتمع غير المادّي المرتبط، بحريّة، بمجتمع الفرجة ذي المعنى الواحد...
إن هذا الكتاب يقترح على الإصبع الصغيرة تعاوناً ما بين الأجيال، من أجل تفعيل هذه اليوتوبيا التي تُعدّ الحقيقة الممكنة والوحيدة.

ميشال سار أستاذ في جامعة ستانفورد، عضو في الأكاديمية الفرنسية، وهو مؤلّف العديد من الأبحاث الفلسفية وفي تاريخ العلوم، ومن آخرها، «زمن الأزمات والموسيقى»، الذي لاقى إقبالاً من الصحافة. إنه أحد الفلاسفة القلائل المعاصرين الذين اقترحوا رؤية للعالم تجمع بين العلوم والثقافة.



الدوحة - قطر

www.aldohamagazine.com